الحضن المفقود

مجموعة قصصية

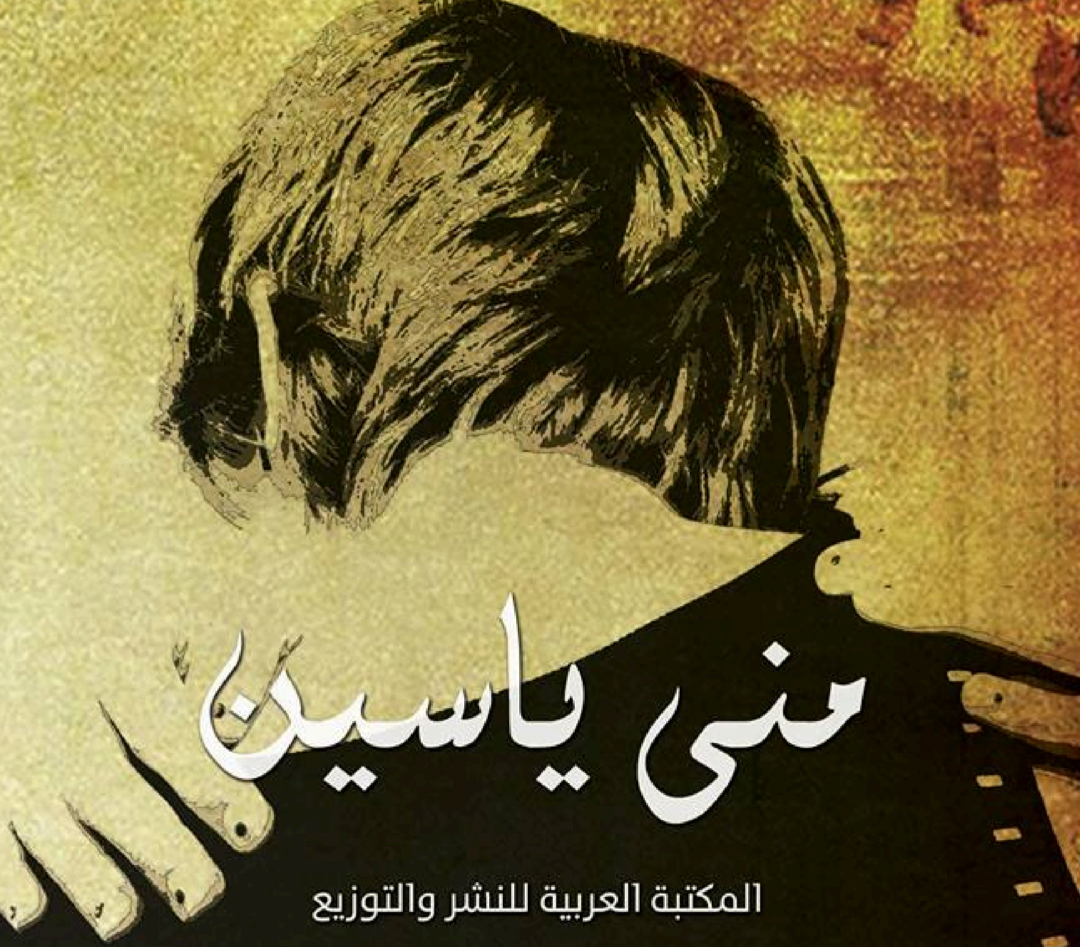

منى ياسين

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

الحضن المفقود

« مجموعة قصصية »

منى ياسين

الحضن المفقود

" مجموعة قصصية "

اسم الكاتب: منى ياسين
تدقيق لغوي: إسلام علي
تصميم الغلاف: عمرو أنور
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
رقم الإيداع: ٢٥٢٠٢ / ٢٠١٧

جميع الحقوق محفوظة
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية، أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

إهداء

إلى شغف الحياة المفتقد

منى ياسين

لكل منا وجعٌ يأويه،
ولكننا نجتهد لنداريه

منى ياسين

* * *

الحضن المفقود

تجلس جوار النافذة، تتطلع إلى الطريق المهرول أمامها من داخل الحافلة التي تقلها إلى بلد المُعز. لا تصدق أنها ستقيم في القاهرة وستترك بلدتها الصغيرة؛ فهذه أول مرة تنتقل فيها من بلد لآخر وحدها دون معونة من أسرتها، وكأنها كانت صاحبة إعاقة أو عجز ما، يتعاملون معها كطفلة لم تتجاوز الثالثة رغم كونها على مشارف الثلاثين. تربيتها داجنة كما يخبرها صديقها.

استطاعت أن تتمرد حين اتفقت مع صديق دراستها القديم أن يقدِّم لها على وظيفة في نفس الهيئة التي يعمل بها فور فتح باب التعيينات، وفي لحظة تيسير من الكون تم تعيينها في القاهرة، ولهذا كانت حُجّتها قوية، لتسافر تستلم وظيفتها في الفرع الرئيسي، مع وعد لأهلها أن تقدم على طلب نقلها فور تثبيتها.

أخبرتهم أيضا أنها ستقطن في شقة لدى صديقة تحيا مع أهلها ليطمئن قلبهم عليها.. وكانت هذه أول كذبة عليهم.

استقبلها صديقها بالترحاب فور وصولها، وحمل عنها حقيبتها، وأشار إلى سيارة أجرة ثم قال لها: فيما بعد سنستخدم مواصلات النقل العام، ومترو الأنفاق.. لا تقلقي سأجعلكِ تتعلمين كل شيء.

وصلا إلى شقته المستأجرة، دلفا إليها وأغلق الباب خلفهما، ثم ضغط زر الإضاءة على الحائط، فوضحت ملامح الشقة؛ قديمة كأنها في قرية ريفية، صغيرة هي عما اعتادته في منزل والدها الكبير.. الصالة تكاد تكون خاوية إلا من موقد يغفو جوار الحائط. وغرفة نوم بشرفة صغيرة بلا زجاج، تحوي سريرًا صغيرًا، وطاولة صغيرة يضع عليها حاسوبه المحمول، وعلى الأرض بقايا فطوره من خبز وجبن وكوب فارغ يحتاج للتنظيف، وفي الأركان تتناثر بعض الكتب والورق والأقلام، مشيرة إلى فوضى مرتبة يهواها صاحبها. الغرفة الأخرى تعتبر كبيرة نسبيا، فيها نافذتان إحداهما مطلة على المسقط الخلفي والأخرى مُطلة على السطح الخارجي، بها سرير ومنضدة كمبيوتر ومقعد خاص به؛ المطبخ صغير حد أنه بلا باب، والحمام صغير كذلك. أخبرها أنه اضطر أن ينقل الغسالة في الصالة ليضع بابًا للحمام فور تأكده من وصولها.

رغم الاختلاف الشاسع في مستوى المعيشة ولكنها شعرت بالإثارة، ورغبت في أن تعيش التجربة كاملة؛ لتثبت لنفسها أنها تستطيع أن تحيا خارج جلباب والدها، ولأنها قبلت التحدي بأن تقطن معه في نفس الشقة دون أن يكون بينهما سوى صداقة نشأت منذ سنوات في الجامعة، ولكنها توطدت مؤخرا فور ظهوره مجددا على موقع التواصل الاجتماعي، وصار بينهما حديث مستمر لا ينضب، حد أنه عرَّفها على زوجته وأبنائه؛ فهو من نفس بلدتها الصغيرة، ولكن تم نقله للقاهرة منذ عامين فصار كالأعزب.. حين يذهب لقضاء إجازة في بلدته تقوم بزيارته أو الخروج معه هو وزوجته وتحادثهما في الهاتف، وصارت تحكي له كل شيء عن حياتها، وكأنها كانت

مشتاقة لأسرة جديدة تحتويها بعد إهمال أهلها لها، ومعاملتهم لها كأنها جزء من أثاث المنزل المضمون وجوده.. تزوج أشقاؤها الصغار ولم تعد تحتمل وحدتها ولا نظرة زوجاتهم لها وهي التي تكبرهن عمرًا.

لم تشعر بأنها تقوم بفعل شيء ينافي أخلاقها؛ فهي كما هي، أخلاقها ستذهب معها أينما حلت. أما عن صديقها فهي تعتبره قريب منها، وتشعر معه بالأمان رغم اختلاف طباعهما في كل شيء.. كان جُلّ تفكيرها ليس أن تتمرد فقط، ولكن أن تصفع المجتمع الذي لم يُنصفْها منذ الصغر، وجعلها تشعر بأنها أصبحت كهلة لا قيمة لها.

تعلّمت بعد مرور ربيع عمرها بأن كلام الناس لن يفيدها بأي شيء، سوى بالشعور بالقهر وانكسار النفس، ولهذا قررت أن تكون سيدة قرارها، ولا تخضع إلا لما تُحقِّق به ذاتها، وتشعر بوجودها وبأنها ماتزال على قيد الحياة.

* * *

مرت أسابيع وهي سعيدة بتجربتها الفريدة. تصحو من نومها تضع غطاء منامتها على رأسها، تذهب إلى الحمام للاغتسال الصباحي والوضوء، ثم تعود لغرفتها وتبدّل ملابسها بأخرى محتشمة، تطرق على باب غرفته عدة مرات لإيقاظه، تحضّر المشروبات الصباحية، شاي من أجله وشاي بحليب من أجلها، تحضر (ساندوتشات) للفطور مكونة من البيض المسلوق والجبن الأبيض والحلاوة الطحينية. يتناولان الفطور ثم يمضيان للعمل في جو أسري بهيج..

تعرفت إلى محطات المترو، وتعلمت كيف تصعد بدونه في عربة السيدات، وكيف تعود وحدها إذا كان لديه أي موعد، وكيف تذهب لمقابلة الصديقات باستخدام المواصلات العامة، دون الرجوع إليه أو الاتصال به.

يعلمون في العمل أنها قريبته، وتقطن معه في نفس الدور وليس في نفس الشقة.

يقضيان وقتهما المشترك في تنظيف الشقة ونفض التراب، وتحضير الطعام وغسل الصحون، غسل الملابس ونشرها، ثم تجميعها وطيها وإذا تطلب الأمر كيها.

فرضتْ وجودها الأنثوي واشتركا في شراء بعض الأجهزة الكهربائية، فاشتريا ثلاجة ومروحتين، وزجاجًا للشرفة الصغيرة، ووسائد ضخمة للجلوس وقت السمر، ومقعدين ومنضدة متوسطة، ووضعا بعض اللمسات الفنية الصغيرة التي توحي بأن أنثى تعيش في هذا المكان.

كانا يجلسان في الشرفة ويتسامران، يحكي كل منهما يومه للآخر بالتفصيل، ويضيف كل منهما خبرته اليومية للآخر، ثم في وقت الخلوة يحترم كل منهما خصوصية الآخر.

في يوم ما أُنهكت قواها النفسية وشعرت بهوانها على الناس؛ فهي وحيدة ولا أحد يشعر بها؛ فهي تخفي وراء حَزْمها ضعفًا عاطفيا، وتخفي وراء عنادها تهالكًا واستسلامًا. تمنت أن تُلقي رأسها فوق صدر أحدهم لتبكي بلا انقطاع.. تفتقد الأمان والشعور بالاحتواء، تفتقد حنانًا تغدقه عليها الدنيا فتتوسل إليها أن ترأف بشبابها وهي ترحل بكل ما فيها عنها. حياتها خاوية كئيبة لا يكاد يكون فيها أثر. كان هو يجلس في غرفته ويغلق الباب بالمفتاح عليه وخاصةَ أثناء انهماكه في عمل ما مهما بدا صغيرا، لا يقبل أن يقاطعه أحد أو يقطع حبل أفكاره أحد.. كانا يلتقيان في الصالة قليلا؛ فهي أصغر من أن يجلس فيها أحد، والغرفتان كأنهما في فندق يفصل بينهما ممر صغير يدعى (صالة). التزاور بينهما موجود للتحاور أو مشاهدة فيلم ما على كومبيوتر أحدهما.. هو يفضل الوحدة دوما، وهي أيضا تعشق الاستقلال.

طرقت بابه، أخبرها بأنه مشغول قليلا، أعادت الطرق بإلحاح قائلة: هلا فتحت الباب؟

. «أخبرتُكِ مرارًا.. لا أحب أن يقاطعني أحد»

. «من فضلك أريدك لأمر هام»

يفتح الباب متذمرا ولكنه يكبح جماح غضبه قائلا: ها أنا أمامك.. ماذا تريدين؟

تقول على استحياء كطفلة صغيرة تريد مصروفا من أبيها، وهي تعضّ على شفتها السفلى وتعقد ذراعيها أمامها: «هل بإمكانك أن تعانقني قليلًا؟»

يتفاجأ من طلبها، ثم يقترب منها معانقًا إياها، فتخفي وجهها في صدره العريض وتضم يديها أمام صدرها كطفل خائف ويريد الاختباء وهي هامدة تماما.. يضمها بحنان دون سؤال.. ظلا واقفين في سكون كامل وهو يضمها إليه، فتمتمت وهي مغمضة العينين: «لو يأتي النوم هكذا!»

تبكي صامتة وتدور عشرات الأسئلة في داخلها..

«لماذا لم أجد الحنان أو الاهتمام عند أحد؟ هل أنا أنثى غير مرئية؟ الأسئلة الصريحة والمواربة لعدم زواجي إلى الآن تمزقني من الداخل وكأنه ليس لي قيمة دون زواج! ما الضرر في ذلك!؟ لا يعنيني سوى شعوري بالحضن المفقود.. مللت من احتضان وسادتي.. أريد يدًا تربت على جسدي وأنفاسًا تدفئني»

وبدون أن يأخذ رأيها حملها لغرفته، فاستكانت له، وأجلسها جواره على وسادة مرتفعة محيطًا إياها بذراعيه.

رفعت رأسها فوجدت أمامها زجاجة من الويسكي وأخرى من النبيذ.

تجاهل نظراتها وقال: «دعينا نشاهد فيلمًا جديدًا.. لقد أحضرتُ مجموعةً من الأفلام الجديدة ولم أشاهد منها شيئا بعد.. اختاري رقمًا»

. «أربعة»

وضع فأرة الكمبيوتر (الماوس) على رابع فيلم وقام بتشغيله.

كان فيلما أجنبيا لـ(جوليا روبرتس) جذبها لمشاهدته.

خرجت لجلب زجاجة فانتا برتقال من الثلاجة للتسلية فيما بينهما. لا يتعدى أحدهما على حرية الآخر؛ فهما مجرد شركاء سكن، والصداقة بينهما لا تسمح لأحدهما أن يتطفل على الآخر.

وبعد هنيهة بدأتْ تشعر بسخونة في جسدها رغم برودة الجو، فأزاحت (الزعبوط) عن رأسها، فنظر ناحيتها بتعجب ولم يعلّق، تجرّع بعض الشراب من الكوب أمامه بصمت.

خلعتْ بلوزة منامتها وفكت كعكة رأسها.. كان ينظر لحركاتها بغير اكتراث، وفجأة انتبه لكونها صارت بجواره ببادي أزرق عارية الذراعين على بنطال منامتها الذي يحمل نفس اللون.

هذه أول مرة يراها هكذا!

قامت من جواره، وظلت تغني بصوتها الناشز الحاد أغنية مهرجانات (مساء البغاشة يا باشا)، وتتمايل كراقصة أفراح لا تدري نغمة ما تسمع، فيصير جسدها مع اللحن ناشزا هو الآخر.

اقتربت منه وأخذت يده ليرقص معها.. رد بابتسامة وأخذ يجاريها ذاك الهراء، بل وجلب بعضا من الورق المتناثر في ركن الغرفة ليرميه فوقها وكأنه يقوم بتنقيطها.. ضحكت بصوت مرتفع وهي تعيش تلك الحالة الصاخبة.

ثم قاما بالتنطط قبالة بعضهما، وهو ممسك بيدها كرقصة الهنود حول النار، فصارت تُصدر أصواتا مثلهم.

كان في كامل وعيه، وكانت هي بلا وعي. هل يشرب هو فتسكر هي!؟

أدرك أنها شربت من كوبه دون أن تنتبه، نتيجةَ اندماجها فيما تشاهده على الشاشة.

كان رغم قلقه عليها إلا أنه سعيد بصخبها؛ فهي دوما حازمة في التعامل، صارمة الرأي، حادة الطباع، يراها تعاني من كبت حاد ومن الجيد أن تفرغه هنا ومعه.

كونها تطلب عناقًا منه هذا يعني بأن حمولتها كانت أكبر من أن يحتملها عاتقها، وكأن هذا تنفيسا لوحدتها وغربتها.

قال لها: «هل تريدين الطيران؟»

قالت دون تفكير: «أتمنى»

جلس على فراشه، وقال لها: اصعدي لتجلسي على كتفي، ففعلت كما أمرها. أمسك يديها بكلتا يديه، ثم وقف وظل يدور بها. كانت تضحك كطفلة صغيرة تركب الأرجوحة لأول مرة، تعقد قدميها خلفها على ظهره، ثم في حركة سريعة أفلتت يدها من يده لترجع بجسدها كاملا إلى الخلف، لتصير كلاعبة أكروبات مُعلَّقة على حبل في السماء. يمسك ركبتيها المعلقتين على كتفيه خشيةَ أن تقع على الأرض. تضحك وهي تحاول أن ترفع جسدها لتعود لوضعها الطبيعي على كتفه، ولكنها تفشل في كل مرة بسبب ضحكها.

يجلس على الفراش، فتصبح بظهرها ممددةً بجذعها على الفراش، وتفك عقدة قدميها من على ظهره، لتصير نائمة بجسدها الغض، رافعةً ذراعيها جوار رأسها. استدار ونظر باتجاهها.. انسل ضوء باهت من بين الستارتين ليُظهر ذراعيها العاريين وكتفيها، ورقبتها، وشعرها الأسود مفرودا خلفها. كانت جميلة وجذابة.. كانت كزهرٍ ينبت عفويا بين الأحجار وينمو دون أن يعتني به أحد.

لم تكن هي نفسها على دراية بقيمة جسدها. خطر بباله أن ينزع هذا البادي ليرى الكنز المخبأ تحته، ولكنه امتنع، واكتفى أن يقترب منها ناظرا إليها نظرة مختلفة، ثم يُقبّل شفتيها قبلة سريعة وكأنه يتذوقها، ثم يكررها حتى فعلها بعمق يشي بانجذابه التام واستمتاعه بهذا المذاق، الذي جعله يريد الارتشاف حتى يرتوي. استشعر دفقا من الرغبة، كالأشعة الأولى المنهلة من شمس الصباح، من أعماق كانت حتى الآن خاوية.. تفاجأ بها تغط في سبات عميق.

نظر لها وابتسم لبراءتها المفرطة، همدتْ عاصفة الرغبة لديه، ثم انتبه لحجم الكارثة التي عليه إخفاؤها قبل أن تستيقظ وتجد نفسها على هذه الحالة؛ فمن المحتمل وقتها أن تقتله وتنتحر.

فقام ليجلب (بلوزة) منامتها من على الأرض ليُلبسها لها. كانت كالطفلة في يديه، أدخل رأسها ثم ذراعيها، وأزاح شعرها من داخل البلوزة ليصير خلفها.. وانتبه لأهمية أن يُسرِّح شعرها بنفس طريقتها له. أخذ يبحث عن (التوكة) التي تُلجمه بها حتى وجدها أخيرا بين الوسادتين على الأرض. أجلسها ليصبح ظهرها مقابل وجهه وقام بتسريح شعرها، ثم وضع على رأسها الزعبوط فصارت كما طرقت بابه، ثم حملها لغرفتها لتنام في مخدعها بسلام.

استيقظتْ بمعجزة تعاني من صداع لم تشعر به من قبل بحدته. بدَّلت ملابسها وطرقت باب غرفته كالعادة لتوقظه.. تخبره بألم رأسها، وتطلب أن يقوم هو بتجهيز الفطور، وأن يعد لها كوبا من الشاي؛ فهي تسمع أنه يزيل الصداع.

تسأله: ماذا حدث بالأمس؟ كيف نمت؟ فأنا لا أتذكر شيئا!

. «لا شيء.. كنا نشاهد فيلمًا ثم تركتُكِ لأنام»

. «غريبة! كيف تتركني وتنام!؟»

. «ألا تعلمين طباعي!؟ حينما أريد فعل الشيء أفعله»

. «أعلم هذا، ولكن مقصدي أنكَ كنتَ صاحب اقتراحَ مشاهدة الفيلم، فكيف تنام دون أن تكمله، وتتركني في غرفتك وتنام!؟»

. «شعرتُ بإرهاق مفاجئ.. ثم ما كل هذه الأسئلة!؟»

. «أتعجب فقط؛ فوقت دخولي لفراشي ساقطٌ من ذاكرتي تماما!»

يناولها كوبا من الشاي ويلهي نفسه بإعداد الفطور.

وبعد ارتشافه لكوب الشاي نظر في عينيها قائلا: «أريد أن أتزوجك»

. «لا أتقبّل هذا المزاح. رأسي يؤلمني ولا أستطيع مجاراتك الآن عموما في أي موضوع»

. «لا أمزح.. أريد أن أتزوجك والآن إذا قبلتِ»

. «لماذا!؟ فأنتَ لديك حياتك الخاصة الممتلئة بزوجة وأولاد.. لن أضيفَ لك شيئا.. إذا كنتَ تريدني في حياتك فأنا بالفعل موجودة، أم نسيتَ شراكتنا في هذا السكن!؟ صراحةً لا أجد لك سببًا سوى أنك تمازحني بطريقة لا أقبلها»

. «إنني أحبك.. أريد أن تصبحي زوجتي.. أريد أن تصبح لدينا غرفة نوم مشتركة، والغرفة الأخرى للمعيشة»

يقولها باسمًا مُخفِّفا حدة الموقف عليها.

. «لا تمزح معي.. أنت تعلم أنني لا أحب التحدث في هذا الموضوع.. هل طلبي للعناق جعلك تتوقع أنني أحتاجك كزوج مثلا!؟ حسنا، كانت لحظة ضعف لا أعلم كيف فعلتُها»

. «كل كلامي عن رغبتي أنا وليس عن رغبتك؛ فأنا أطلب منك الزواج لأنني أنا من يحتاجه»

. «لا تجعلني أشعر بالندم إزاء ما أحكيه لك عن ما يضايقني في اليوم، وعن فراغي العاطفي»

. «هل أحملك إلى المأذون الآن لتتأكدي من أنني لا أمزح، ولا أستغل فضفضتك معي؟»

. «ليس من حقي إجابة هذا السؤال.. لستُ أنا من تأخذ شيئًا يخص أخرى. لا أنظر لممتلكات الآخرين ولا تلفتْ نظري لاقتنائها، وأنت تعلم عني هذا جيدا.. بالإضافة لكوني لن أفعلها بدون علم أهلي مهما حدث.. لن أكافئ ثقتهم بي بزواجي بدون علمهم.. ولن أخون زوجتك بعد أن أصبحنا صديقتين.. تعلم أنني كارهةً لكلام الناس ولكننا نحيا معهم وبينهم»

. «إنني أحبك!»

. «رأسي يؤلمني بشدة»

وضعتْ يدها على رأسها، فاقترب منها مُمسّدا عليه، فأبعدت يده، وولجت غرفتها وأغلقت الباب.

تشعر بصراع؛ فلو تزوجته لأصبحَ وجودُها معه هنا وضعًا طبيعيا، لكنها لا تحبه حب الحبيب، ولا تتخيله كزوج؛ هو فقط صديق مقرب بمثابة أحد أقاربها، كابن عمها أو ابن خالتها.

ما يؤلمها أن طلبه هذا لا يعني سوى رحيلها؛ فلن تستطيع المكوث مع رجل يتمناها زوجة، وينظر لها كأنثى مرغوبة؛ وكم تاقت لهذا الشعور ولكن ليس منه هو تحديدا.

سمعت باب الشقة يُغلَق فاستنتجت خروجه، فقامتْ تُعِدّ حقيبة سفرها لتُغادر إلى بلدتها الصغيرة، بعد أن تقوم بطلبٍ لنقلها؛ وبهذا أزاحتْ كذبتها الصغيرة من صحيفة أعمالها، حينما قالت لأهلِها سابقا أنها ذاهبةٌ كوضع مؤقت.

الجانب الآخر

تختار (صفاء) بعناية ما ترتديه لذهابها لندوة ثقافية سيتحدد من خلالها مصيرها كشاعرة. تريد أن تكون أول الحضور. تقلب أوراقها وتختار بعضًا منها، تختبر أداءها أمام المرآة ونبرة صوتها مع ملامح وجهها لتعبر عن ما تقوله، فتضيف مصداقية وتؤثر في الجمهور. هذه الندوة ستقابل فيها شخصيات كثيرة لها اسم في الوسط الأدبي، منهم من تعرفت عليه سابقا ومنهم من تتابع قلمه على الإنترنت. هم يعرفونها؛ فهي دائمة التعليق لديهم مهما كان المنشور المطروح حتى لو كان تحية الصباح. يسافر ذهنها بعيدا متخيلا أحدهم يعرض عليها نشر ديوان خاص بها، وآخر يبدي إعجابه بجمالها الآخاذ، ولعل أحدًا لا تعرفه يأتي فيعبر لها عن متابعته الصامتة لها وسعادته الآن برؤيتها والتحدث معها مباشرة. تتنهد بابتسامة وتخرج من غرفتها لتقابلها أمها القائلة بنفاد صبر: «إلى أين تذهبين؟؟»

. «لدي ندوة هامة و...»

قاطعتها الأم: «وهل ستتركين أطفالك معي؟»

. «نعم يا أمي.. لن أتأخر»

. «لن يحدث! يكفيني وجودهم طول فترة الصباح وأنتِ في العمل. إذا أردتِ الخروج فاصطحبيهم؛ فلم تعد لدي طاقة لتحمل شقاوتهم»

. «لا أستطيع؛ الندوة ليست مكانًا لاصطحاب الأطفال، بالإضافة لكونهم سيزيدون توتري؛ فهل سأهتم بما ألقيه على الجمهور أم أنتبه لأفعالهم!؟»

. «ليس هذا من شأني.. أنا صحتي لم تعد تتحمل، وأبنائك لا يكفون عن الحركة»

تظهر على وجهها علامات الامتعاض وعليها أن تحسم القرار سريعا، ثم...

. «مهند، يامن، هيا لتبديل ملابسكما.. سنخرج معا.. عندي مشوار هام وسأصطحبكما معي.. لا أريد شقاوة.. اتفقنا؟»

مهند: «وهل هذه خروجة؟»

يامن: «أريد آيس كريم»

. «سأجلب لكما ما تريدان.. لكن شرط عدم الحركة أثناء وجودنا في المكان»

تدخل القاعة.. تجدها مكتظة بالحضور.. تجد مكانا شاغرا وجواره أريكة صغيرة.. تجلس على المقعد وتُجلِس صغيريها على الأريكة.. تُلقي نظرة على الوجوه فتجد منها كثيرا تعرفهم، تُخرِج أوراقها من حقيبتها لتعيد نظرة على ما ستقوله.. يفاجئها (مهند) بقوله: «أريد أن أدخل التواليت».. «هل هذا وقته!؟» يعيدها على مسامعها بصوت أعلى «أريد أن أدخل التواليت!» تقوم وتأخذه من يده هو وشقيقه لتبحث عن مكان التواليت.

تعود لتجد أن اسمها يُنَادَى في مكبر الصوت، فتذهب بخطوات سريعة لتفاجأ بطفلها الصغير يتشاجر مع شقيقه.. تحاول تهدئتهما قدر المستطاع، ثم تصعد إلى المنصة مشدودة الأعصاب متجهمة الملامح، تحاول انتزاع بسمة علَّها تظهر بشكل لائق أمام الحضور.. تلقي قصيدة لا تتذكر معظم أبياتها وتنتهي سريعا.

أثناء عودتها لمقعدها تشاهد ابنيها يُسقطون زهرية لتُحدث دويًّا مرتفعًا يلتفت له الحضور.. تذهب إليهما مُسرعةً وتود المغادرة، لولا انتظارها معرفة تقييم قصيدتها المبتورة. لم يتم التنويه وقت التقييم لها وكأنها لم تحضر.. «علَّ اسمي سقط سهوا.. علها طريقة مُثلى لإخباري بفشلي.. معهم حق؛ فأنا لا أدري ماذا قلت».. أخذت صغارها ورحلت ساخطةً على طليقها الذي جعلها تعود للحياة مع أمها مجددا، وعلى تحملها مسؤولية الأطفال وحدها، وغاضبةً من أمها التي رفضت أن يظل الأطفال معها.

كم تمنت أن تنفجر في وجه أحدهم!

في اليوم التالي وأثناء عملها الحكومي كموظفة في شؤون العاملين، لم تدعْ ورقةً تمرّ من تحت يدها بسلام؛ كانت تتعمّد وضع عراقيل لوقف أي شيء يسير بصورة طبيعية.

. «ناقص ختم»، «محتاجين كمان صورة»، «اسأل مدام عفاف»، «فوت علينا بكرة».

من سيربح المليون؟

تهوى (دينا) متابعة برنامج (من سيربح المليون؟).. تشاهده بشغف.. تجيب عن غالبية الأسئلة دون الاستعانة بصديق، أو حذف إجابتين.. لم تكتفِ بهذا؛ بل كانت تحرص على كتابة هذه الأسئلة بالأجوبة في أجندة خاصة؛ لتراجعها من آن لآخر، فتقوي ثقافتها وذاكرتها.

جلس زوجها (علاء) جوارها، ليتابع إحدى الحلقات معها.

بعد انتهاء الحلقة، وإثر فوز المتسابق بمبلغ نصف مليون جنيه تنهد قائلًا: «ليتني مكانه!»

ثم نظر لزوجته مليًا، وقد انتبه إلى فكرة جالت في ذهنه توا: «لِمَ لا نكون مكانه بالفعل؟»

. «ماذا تقصد؟»

. «أقصد أنكِ تملكين القدرة على الجلوس مكانه، والفوز بالمبلغ ذاته أو أكثر.. ما رأيك أن تشتركي في هذا البرنامج؟»

أجابته مبتهجة، وهي تشعر بثقته في معلوماتها العامة قائلة: «وتريد أن أربح كم من المبلغ المحدد؟»

أجاب بما لا يدع مجالًا للشك: «المليون كله بالطبع، وإلا لن أدخلك الشقة!»

قالت: «أوتعلم؟ سأذهب خصيصًا لأجلب لك المبلغ كاملًا»

قال: «ألن تأخذي منه شيئًا؟»

ردت بهيام صادق: «كل ما أردته في الحياة هو أنت، وقد حصلتُ عليك بالفعل.. أي شيء آخر سيكون طمعًا.. المال لا يلزمني ولا حاجة لي به، ولكنك أنت من يحتاجه، ولهذا تعمل كثيرا لتجنيه»

أجابها بعدم تصديق: «هذا مجرد كلام. حينما تربحين ستأخذين المال لكِ وحدك»

تجاهلت أسلوبه الساخر من مشاعرها، وقالت: «ستكون إذن الصديق الذي سأتصل به إذا ما احتجتُ مساعدة.. ولكن أخبرني، في أي مجال ترى نفسك متفوقا؟»

قال بحماس: «في الرياضة»

أخبرته بحماس مماثل مصحوب بابتسامة واسعة: «سأتصل بك لأخبرك عن مشاعري تجاهك على الهواء مباشرة.. (أحبك يا زوجي العزيز)، ولن أسألك عن شيء»

تجهم من دلالها الماسخ وتركها وانصرف.

باتت (دينا) تحلم بتلك الرحلة التي أتت منقذةً لها؛ ففيها سوف تنفّث عن ضيقها الأبدي من وجود أمه.. «سأرتدي أخيرا ملابسي التي ابتعتها كعروس، والتي لم يتسنى لي إطلاقا ارتداؤها بسبب وجودها الدائم معي على مدار اليوم.. سأشعر بحريتي بعيدا عنها دون تذرع مشاجرات لاستيقاظي بعدها مثلا وتركها وحيدة -هي تستيقظ من السابعة صباحا، ما ذنبي أنا

لأشاركها اليوم من بدايته وكأني جليسة أطفال تعمل في روضة وعليها بث حكاوي طريفة لتسليتها!؟- تشاركني في كل شيء.. لا تترك لي وقتًا أقضيه منفردةً بنفسي حتى يعود (علاء) من العمل.. وإذا مكثتُ في غرفتي قليلا بعد أن تتأكد من استيقاظي تفتعل مشكلة وتتهمني بتجاهلها، ولا يأتي في مخيلتها بأن من حقي الانفراد بذاتي بعض الوقت. صعبة المعشر هي وتهوى تمثيل الأدوار التي تشاهدها في الأعمال التليفزيونية بغض النظر عن ما تسببه من أذى لمن حولها».

«أما عن ما سأربحه سأطلب من (علاء) أن يبتاع لنا به شاليه في مكان ساحلي، أو يبدل السيارة بأحدث نوع.. لأ لن أقترح هذه الأشياء فهي ستشاركنا في ذلك، عليه أن يجلب شيئًا خاصًا لي أنا وحدي، ولتكن قلادة ذهبية مثلا.. لا أيضا فسيجلب لها مثلها.. سأتبرع بجزء لمستشفى حكومي فهذا ما سيتبقى لي».

نامت تحتضن حلمها والبسمة على وجهها تضيئه.

في اليوم التالي سألها: «هل اتصلتِ بالبرنامج للاشتراك؟»

قالت: «نعم.. أخبروني أن الرحلة ستستغرق أسبوعًا في لبنان، ومن المُتاح أن يكون لي رفيق.. استعد إذن، وقدم على إجازة من عملك لنذهب معًا.. يا الله ستكون رحلة شيقة! بدلا من شهر العسل الذي لم يتح لنا قضاؤه؛ فقد قضيناه في المنزل كأسبوع روتيني؛ نتيجةَ رغبة والدتك في ألا تبتعد عنها»

ولسان حالها يقول: «ستكون فرصةً رائعة للانفراد بزوجي من حصار والدته لنا؛ فهي لا تُقدّر غيابه الإجباري بسبب عمله طول اليوم، وعودته مُنهكًا نصف الليل، لتقضي معنا ما تبقى من اليوم الضائع؛ حيث أنها تقطن في الشقة المجاورة. هو يعلم أنه قد فاض بي الكيل من سخافة ممارستها وأنانيتها في تملُّكه وكأنه زوجها هي، حتى أنها تغار من وجودي، ولولا قيامي بشؤون المنزل الخاصة بها لتذرعتْ الحجج لهدم حياتي معه دون أن يطرف لها جفن. أتحملها لأنها أمه على أمل أن يأتي يومٌ أتخلص فيه من قيود تلك المرأة المتسلطة، وها قد حانت الفرصة حتى وإن كانت لأيام قليلة أشعر فيها بأنني زوجة حقًا ولستُ خادمة أو زوجة ثانية مُهملة.. عمله المتواصل جعل فيض عشقه يجف، وخزائنه تنفد، وينابيعه تنضب. حياته كلها للمال وبالمال»

«أعذرك يا حبيبي؛ فطفولتك المحرومة من كل مباهج الحياة جعلتك نهمًا لا تشبع، مهما جمعتَ في جعبتك من نقود تكفيك وتغنيك. أعذروالدتك أيضًا؛ حيث طلَّقها والدك وأنت لم تخطُ خطواتك الأولى في الحياة بعد، وشقيقك لم يكن سوى نُطفةً عالقةً في جدار رحمها، فأصبحتُ لها رجُلها الوحيد، الذي عزم أن ينحت الصخر منذ الصغر؛ ليعوض الحرمان الذي صاحبهما في الماضي.. مازال في قلبك غصة، وفي روحك شهقة، وفي عقلك أنين، من هذا الماضي اللعين؛ الذي يذكرك بموت شقيقك الصغير، على عتبة المستشفى الحكومي، الذي رفض استقباله بعد تدهور حالته الصحية، نتيجة عدم تلقيه العلاج في الوقت المناسب؛ فوالدك قد نفض يديه من مسؤوليتكم، فور إعلانه الصريح عن اعتزالكم إلى الأبد، والزواج

من أخرى تاركًا معها البلاد، وتاركًا معكم الفاقة.. مات الصغير بين يديك العاريتين، وحسرة الأم البادية»

«أحببتُ فيك تحملك المسؤولية، وتقديرك لوالدتك، وامتنانك لها بأنها لم تتزوج بعد طلاقها؛ حتى لا تجلب لك رجلا غريبًا يتحكم في مصير حياتك؛ فقد يكون فظًا غليظًا فيؤلمك وتنشأ معقدًا، واكتفت بهجر أبيك لك؛ فكان هذا كفيلًا بما أصبحت عليه من جمود مشاعر وصلادة قلب».

أفاقت من شرودها على صوته يخبرها في حزم: «لن أذهب معك؛ فعملي لا يسمح بإجازات»

أجابت برقة حزينة: «هل ستتركني أذهب وحدي؟»

أخبرها حاسما: «بالطبع لا.. أمي ستذهب معكِ»

إيحاء

تعاني (فيحاء) من تشنج حاد، يجعلها تنتفض إذا ما حاول أحدهم لمسها، مما صعَّب الأمر على الطبيب الذي استُدعي خصيصا لرؤيتها من قِبل مباحث أمن الدولة؛ فقد احتاج لمساعدة مضنية، ليجعلها تطلق ذراعها ليُعاين معدل النبض.

كان جُلّ ما تقوله كلمة متقطعة واحدة لا غير: «حرر..اا..م! حررر...ااا..م!».

أعطاها حقنة منومة، وشخَّص الحالة: (صدمة عصبية).

دخل شقيقها لحجرتها في المستشفى، كالمجنون فور معرفته ما حدث لها. يريد أن يعرف ما هي الأحداث التي سبقت تعرّضها لهذه الصدمة؛ فقد تفاجأ في اليوم السابق بأنه قد تم القبض على شقيقته لوجود شبهة في أن تكون من ضمن جماعة إرهابية.

(فيحاء) التي لا تخرج كثيرا من باب البيت، مُدللة الجميع؛ فهي الابنة الوحيدة والصغرى أيضًا، لا تفعل شيئا بعد تخرجها الجامعي سوى الرسم على الزجاج، مبعث بهجتها مساعدة المحتاج وزيارة الأيتام، أفلام الرعب وأخبار الحروب كفيلة بأن تجعلها تصاب بانهيار عصبي، أو اكتئاب حاد.

فور معرفة (أدهم) ما حدث لشقيقته اتصل بابن عمه ذو الرتبة العالية في الجيش، ومن ثم قامت الاتصالات، حتى علموا بأن ماحدث هو

تشابه في الأسماء، لكن وجود شقيقته الآن مصابة في مستشفى يعني أن هناك فعلا مشينا قد حدث لها.

«فيحاء»، ينادي عليها هامسًا.

لم تستجب لندائه.

حاول مجددًا، مربتا عليها.

هنا انتفضت بجزع، مع تشنج كأن مسًا كهربائيًا أصابها. «اهدئي يا صغيرتي، أنا بجوارك، لا يوجد أحد يستطيع إيذاءك، أنا بالقرب، لن أتركك». يهدئها بكلماته وعيناه مليئتان بالدموع المحبوسة.

فتحت عينيها لتتأكد من الصوت؛ وجدته شقيقها، فقالت الكلمة الوحيدة التي تكررها منذ ما حدث: «حررر..اا.م!»

. «هل مسك أحد بسوء؟ أخبريني!»

صوته مخنوق بانفعال غاضب، يحاول جاهدًا أن يسيطر عليه. قالت بكلمات متقطعة تحاول أن تسيطر فيها على تشنج جسدها:

«لللقد أحكم وثاقها كككالبهيمة التي تساق للذبح.. ثم مزّق بالمقص عنها جميع ما ترتدي قطعة قطعة، إلى أن صارت أمامه عارية تمامًا، فما كان منه إلا أن جاء بعصا صغيرة تنبثق منها عصي حديدية كثيرة، وو....

ازداد تشنجها وصرخت كالمجنونة: «حررر..ااا..م!»

هدَّأ من روعها، محاولًا أن يستخرج أهم مشهد بالنسبة له وهو: «ماذا حدث لكِ؟؟»

حاولت أن تنطق، وأن تجلس لتقص عليه كل شيء، لكنها لم تستطع، وكأنها أخيرا قد انتبهت لوضعها، فقالت صارخة بكلمات متقطعة: «أين أنا؟ ولماذا لا أستطيع أن أتحرك؟» وزاد تشنجها واهتزازها بعنف، فنادى (أدهم) سريعًا على الطبيب، وبعد الفحص أخبره مُتأسفًا أن الصدمة أثّرت على جسدها، وجعلته على هذا الوضع المتيبس. فما كان من شقيقته بعد معرفتها بتدهور حالتها، سوى أن دخلت في غيبوبة.

يجلس (مُنيب)، مستمعًا لما يقوله الضابط ذو الرتبة الأقل.

. «لم نفعل بها شيئا يا معالي الباشا.. فقط عرضنا عليها فيديو (جوليا)».

. «وهل مجرد رؤية مشاهد تفعل بها هذا؟»

. «هذا ما يثير العجب يا فندم، ونشكر الله عليه؛ فلو فعلنا بها حرفيًا ما حدث في الشريط، أظنها كانت ماتت من أول مشهد»

. «نحن في وضع مؤسف، وخاصةً أنها قريبة لـ(فريد باشا).. ولولا سؤاله عنها في الوقت المناسب، لخرجت من هنا بعاهة أو على محفة».

. «المؤسف حقا يا منيب باشا أننا لم نمسها بسوء يذكر حتى تصاب بهذه الغيبوبة؛ فأثناء المشهد الأخير الخاص بالجهاز الكهربائي، وجدناها

تنتفض، وكأنها هي من سُلِّطت عليها الكهرباء لفترة طويلة. هل يعقل أن تعذب بالإيحاء!؟»

. «غيبوبة!! هل وصل الأمر لذلك!؟ يا لها من كائن لا تليق به الحياة على هذا الكوكب!»

. «وهذا ما فعلتْه حرفيا يا فندم؛ لقد وافتها المنية منذ قليل»

قالها بعد أن قرأ الرسالة التي وصلته توًّا على محموله.

الميدالية الذهبية

تعلّمَتْ (هنا) لغة الإشارات الخاصة بالصُم، وضعاف السمع.

ولشدّة تعاطفها مع تلك الفئة، خصَّصت وقتًا من يومها، تذهب فيه لزيارة بعض الفتيات منها في مدرستهن الخاصة، بعد انتهاء اليوم الدراسي -حيث أنها مدرسة داخلية- لتجلس معهن، وتشاركهن حياتهن. وكم كانت سعادتها كبيرة بانجذابهن إليها، وحرصهن على صداقتها، وإظهار الجانب الإيجابي بداخلهن لها دائمًا! وكم تعجبتْ من حرصهن على أداء الصلاة في أول الوقت، وكأنهن يسمعن الأذان.

لاحظتْ على إحداهن شغفها بالنجاح والتفوق، ليس فقط في الدراسة، ولكن في أي شيء، حتى لو مجرد لعبة ترفيهية.

عزمت على مساعدتها، لاستثمار ما بداخلها من طاقة وحركة، ورغبة في التفوق.

سألتْ مُدرسة التربية الرياضية عن مستواها الرياضي، ومهارتها في ممارسة الأنشطة، فأجابتها بأنها تتفوق على زميلاتها دائمًا في السباحة.

وهنا خطرت لها الفكرة: سوف تجعل فتاتها تشارك في بطولة الجمهورية للسباحة، وستكون هي رفيقتها ومترجمتها.

حين اقترحت هذا على أهل الفتاة، كانت النتيجة هي الرفض القاطع؛ فقد تلخصت وجهة نظرهم في «كيف لابنتنا أن تتدرب مع فتيات صحيحات، يستطعن السمع وهي لا!؟».

. «سأكون معها ولن أتركها»

. «أرجوكِ لا تعطي لابنتي حلمًا جميلًا، ثم تجعلينها تستيقظ منه على كابوس»

. «هذا لن يحدث.. إلا إذا أرادتْ الخسارة»

وإزاء إلحاحها، وإصرارها، وتحمسها للقيام بهذه الخطوة.. وافقوا على مضض.

بدأت الفتاة التدريب، ولاحظ المُدرب كم هي بالفعل مميزة جدًا في مجال السباحة، ممّا جعله يدعمها نفسيًا، فأثار ذلك غيرة قريناتها، فصرن يتعاملن معها بطريقة سيئة، لدرجة جعلتها تمتعض غاضبة، وتقرر عدم الاستمرار. الفتيات يتعمدن إثارة غيظها، عن طريق همساتهن لبعضهن بعضًا، وتضاحكهن جهرًا قبالتها، فاعتقدت بأنهن قطعًا يسخرن منها. حينما لاحظت (هنا) استياءها قالت لها: «لا تعيريهن انتباهًا. وكما يتكلمن بلغة لا تفهمينها، سنتحدث معًا أمامهن بلغتنا الخاصة، وحينها سيشعرون بنفس شعورك».

. «لكنني دونك أصبح وحيدة»

. «لن أترككِ هنا وحيدةً بعد الآن. سأرافقك كظلك. هذه بطولتك أنتِ. حذار أن تخذليني»

. «هل تعتقدين بأنني حقًا سأفعلها؟»

. «رغمًا عنكِ ستفعلين.. لن أتنازل عن الميدالية الذهبية»

جاء وقت المباراة. شاهدت المتسابقات برفقتهن من يشجعهن بصوت عالٍ، ليبث الحماس بداخلهن، وفتاتها لا تسمع شيئًا. فأشارت لها قائلة: «ضعي هدفك أمامك، واسعي له بكل قوتك، وستحصلين عليه»

كانت نظرات الفتاة مصوّبة تجاه رفيقتها، حتى تشير إليها بالبدء؛ فهي لن تسمع طلقة البداية، ولذلك حملتْ راية كُتِب عليها: «النصر حليفك فتمسكي به».

مع دوي الطلقة بدأت المسابقة، ولوّحت رفيقتها بالراية إعلانًا لبدء المسابقة.

الكل يشجع، ويترقب نهاية المسابقة. والفتاة تردد في نفسها كلمات رفيقتها.

«سأصل، النصر حليفي».

نظرات سخرية زميلاتها شكّلت لها حافزًا لأن تنتصر عليهن.

حين انتهت المسابقة، انتظرت بفارغ الصبر إعلان النتيجة. رأت -كالعادة- رفيقتها تقف في الجهة المقابلة لها؛ لتترجم لها نتيجة المسابقة حين يعلنها الحكم. وكانت المفاجأة: حصولها على المركز الأول، وفوزها بالميدالية الذهبية!

اتجهت إلى المنصة لتستلم الميدالية، والدهشة تعلو محياها، ثم نظرت لرفيقتها، وأشارت لها بأن تتقدم إلى جوارها. وبعدما ارتدتْ الميدالية الذهبية، استأذنتْ لجنة التحكيم أن تقول كلمة. وافقت اللجنة وقدموا لها الميكرفون، فأعطته لرفيقتها حتى تترجم الإشارات التي ستصدر عنها على هيئة كلمات يفهمها الجميع.

فقالت رفيقتها عن لسان فتاتها الفائزة: «أحمدُ الله لفوزي بالمركز الأول، وحصولي على الميدالية الذهبية، التي تزيّن عنقي الآن. وأريد أن أشكر كل من ساندني وساعدني حتى أحقق حلما كان يومًا في خاطري بعيد المنال. وأخصّ بالذكر مرافقتي المُخلصة، التي آمنت بقدراتي، ولم تتوانَ لحظة عن تشجيعي؛ فقد كانت العونَ الدائمَ لي، ولهذا أطلب منكم تحيتها بالتصفيق الحارّ، بعد أن أُلبسها الميدالية الذهبية؛ لأنها هي التي تستحقها حقًا»

وقبل أن تدرك المُرافقة ما قالته عنها فتاتها على لسانها، كانت الفتاة قد خلعتْ الميدالية وألبستها لها.

فقالت المرافقة ودموعها تترقرق في عينيها: «مازلتُ غير قادرة على استيعاب حقيقة ما فعلته فتاتي.. ومن دواعي فخري أن أكون سببا لنجاح فتاة مجتهدة وموهوبة مثلها.. هذه الهدية هي أغلى ما حصلت عليه؛ لما تحويه من امتنان، وهذا بالنسبة لي لا يُقدّر بمال.. وأرى أن اجتهادها يستحق أن يُكلَّل بوجود الميدالية معها»

أشارت لها الفتاة قائلة: «يكفيني وجود اسمي كصاحبة المركز الأول»

عانقتها وقالت لها: «انظري الآن إلى صديقات دراستك؛ فعيونهن تقول أنهن سعداء بكِ ولكِ»

وتعالى التصفيق من لجنة التحكيم.

كبرياء

في شموخ يطل النيل على الجالسين أمامه فوق عرش المجالس في هدوء المُحبين، وترمي الأشجار بظلها فتخفف من حدة الشمس فوق رؤوس المُغرمين، ونسمات العليل تأتي من آن لآخر لتبعث بهجةً في نفوس العاشقين.

يجلس (أحمد) على ركبته قبالة (هايدي)، فاتحًا العلبة الصغيرة في يده ليَظهر خاتم ألماس رقيق قائلا: هل تقبلينني زوجًا لكِ؟

تنظر له بدهشة ممزوجة بحيرة، مع نظرة المتلصصين حولهما المترقبين ردة فعلها. تترقرق الدموع في مقلتيها، وينعقد لسانها فلا تدري ماذا تقول؛ فهذا هو (أحمد) طبيبها المُعالج الذي أجرى لها عملية جراحية، وصارا بعدها بمثابة الصديقين، يُبهرها دوما بأفكاره غير التقليدية، جرأته في التعبير عما يدور بخلده دون اعتبار لتقاليد المجتمع، أو مظهره كطبيب له قيمته العلمية. (أحمد) رجل تخطى الأربعين دون زواج أو ارتباط رسمي بحجة أنه لم يجد روحه بعد، لا يفضل أن يتزوج لمجرد أن يُرضي والديه أو لأنه اقترب من الثلاثين. لم يقتنع والداه وقتها بما يقول، ولكن لا مفر من قراره؛ فهو ليس بنتًا يستطيعون إرغامها على الزواج قبل أن تفقد مدة صلاحيتها وتصبح قدرتها على الإنجاب حلما محال.

يعلم أنه يحيا حياةً واحدة فقط غير قابلة للتكرار، ولهذا لا يغامر بفعل شيء لا يقتنع به، لمجرد أن يسير مع التيار ولا ينحرف عن الطريق.

عكسها تماما؛ فهي تهوى المغامرة، حتى لو كانت النهاية معروفة مُسبقا.. لذة التجربة عندها لا تضاهيها متعة؛ فأن تغامر، وتجرب، وتفشل، أفضل عندها من أن تظل ساكنة، نادمة تحت وطأة «يا ليتني!».

تجاهدُ دمعة عينيها المتراقصة على أهدابها، وتخبره وهي تهم بالرحيل: «أنا مضطرة للذهاب».

تتركه وتنصرف أمام ذهول الحاضرين، وإحراجه أمام الجميع، ودهشته كمن سُكِب عليه دلوٌ من مكعبات الثلج في يوم عاصف شديد البرد.

لم تكف عن البكاء فور انفرادها بنفسها؛ فهي تحبه فعلا، ولم تصدق أنها ستقابل أخيرا من يحبها حقا ويطلبها للزواج أمام الجميع دون أي اعتبارات أخرى، ودون سؤالها عن أي شيء يخص ماضيها كحال أي عريس يريد الاطمئنان أنه أول من يمر في حياتها، حتى وإن كان العابرين في حياتها كُثر وهي تقضي أوقاتًا لطيفة شرط ألا يمس أحدهم ختم الجودة الذي يثبت عذريتها، وكأن العذرية تكمن في الجزء الأسفل من الجسد فقط.. المهم أن تظل أمام الجميع لم ترتبط رسميا فتصبح الطاهرة النقية.

بينما هي مُطلّقة ولم يمسسها مخلوق غير زوجها، ومع ذلك فلقبها يعتبر وصمةَ عار في تاريخها جعلها تخفيه عن من يدخل في حياتها مُجددا؛ فالنظرة للمُطلقة غير النظرة للعذراء. فالمُطلقة مُباحة، لا حياء لها، ولا عِرض لها يُخشى أن ينتهك؛ ولهذا أثناء ملء استمارة دخولها للمستشفى كتبت في الحالة الاجتماعية (آنسة)، مُستغلةً وجود رقمها القومي القديم معها. هو قطعا لا يعلم بأنها مُستعملة، كما يُطلَق عليها من قِبل الخاطبة التي تأتي لها

من آن لآخر بعريس مواصفاته لا تليق بها كمُحامية لها شأنها واسمها أمام الجميع. وحينما تعترض ترمي لها الخاطبة بهذه الكلمة بطريقة مواربة، تعني «لم يعد لكِ الحق في التمني والاختيار؛ فالمُستعملة لا مهر لها ولا شبكة، بل وقد تتحمل تكاليف الزيجة كاملة».

نظرة دونية لا تقبلها على نفسها، حتى وإن كان هذا قانون المجتمع السائد الذي تحيا فيه.

أصبح سلاحها الوحيد أن ترفض من يتقدم لخطبتها مهما كان، قبل أن تسمع كلمة تُهينها سواء بقصد أو بدون قصد. ولكن الفارق هنا أنها فعلا منجذبة لأحمد وتريده كما يريدها، ولكنها لا تريد أن تجرح روحها على يديه بعد أن طيَّب داءها الجسدي.

إنها أخفت عنه كونها مُطلقة، لم تخبره سابقا بأنها كانت مرتبطة من الأساس، فكيف سيتقبل هذا الآن!؟ قطعا سيظن أنها غير أمينة وأنها كاذبة، وأنها دبَّرت كل شيء ليحبها فيصبح مع قلبه أمام الأمر الواقع. لا، لن تتحمل نظرته أو رد فعله وقتها، ولكن لزاما عليها أن تخبره.. من حقه أن يعرف طالما يريد الزواج بها.. قبل هذا لم يكن من حقه معرفة شيء لن يفيده.

أثناء تواجدها في مكتبها دلف إليها قائلا: أعتقد هنا لن تستطيعي الفرار.

فرحت فور رؤيته وضحكت قائلة:

. «أحمد، الموضوع ليس هروبًا أو رفضًا.. لكن أنت لا تعلم شيئًا عن حياتي»

. «بعد أن اقتربتُ منكِ اكتفيتُ بما عرفتُه لكي أطلب أن تكملي معي حياتي»

. «لكن هذا وحده لا يكفي. هناك شيء هام عليك معرفته قبل أن تُصدر قرارك»

. «هل السر مثلا أننا أخوات في الرضاعة؟»

أجابت بعفوية: «لا، لسنا أخوات في الرضاعة».. ثم انتبهت قائلة: «ثم أن فرق السن بيننا عشر سنوات!»

ابتسم بعدما نجح في أن يخفف من وطأة الحديث الجاد الذي تتحدث به، فهمت هي فابتسمت بدورها، وقامت تغير جلستها على المقعد قبالته، بعد أن وقفت لاستقباله، ثم صارت تسير خطوتين ثم تعود مجددا، وهكذا لعل اضطرابها يزول.

أجبرت نفسها على النظر في عينيه وهي تخبره: «أنا مُطلّقة».

فيقول بعد أن قرَّب وجهه منها بصوت هامس: «ثم؟»

تجيبه بتعجب: «لا شيء!»

يرد مستفهما: «هل تقصدين أنكِ كنتِ متزوجة عُرفيًّا؟»

تقول غاضبة: «عرفيا!؟ قطعا لا! كنتُ متزوجة رسميًّا وعلى الملأ أيضا، لكن النصيب انتهى»

. «إذن، أين الكارثة الآن؟»

. «هل كوني مطلقة لا يعني لك شيئا!؟ ألا تريد معرفة سبب طلاقي!؟ أو متى حدث؟ ومن هو؟ وباقي التفاصيل؟»

. «لا»

. «أقولُ لك إنني مُطلقة؛ بمعني أن هناك من لمسني ورآني وعاشرني، ومازال لدي بعض ذكريات يؤلمني تذكرها ولا أحب أن تذكرني بها يوما ما.. ولهذا إذا أردتُ السؤالَ عن أي شيء فليكن الآن؛ حتى ننهيه تماما ولا يكون مجالًا للحوار بيننا يوما»

يرد بهدوء متنهدا: «أهذا هو سبب فرارك مني إذن؟»

ترد بعصبية: «أحمد، أرجوك لا تتعامل كأن الأمر بسيط!»

. «الموضوع ببساطة أنني أعلم كل شيء عن حياتك، وكنتُ مُندهشًا لماذا بدَّلتِ حالتك الاجتماعية الحقيقية في استمارة المستشفى، وقد يكون هذا ما دفعني للاقتراب منكِ علَّني أفك هذا اللغز.. عمّكِ حينما جاء للسؤال عنك في اليوم التالي سأل باسم (مدام هايدي)، نظرتُ على الاستمارة وسألته: «أهي متزوجة؟» قال: «بل مُطلقة».

وحين كنتُ أغيِّرُ على جرحك في نفس اليوم، كان يتم في التلفاز عرضُ حلقة في برنامج عن اغتصاب سيدة من أحد العاملين في المستشفى بعد إجرائها عملية جراحية قبل أن تفيق من البنج. وقتَها تبدلتْ ملامحك لعصبية وكأنكِ تمتين بصلة قرابة للضحية. حينها فقط فهمتُ بأنكِ تتخذين هذا الادعاء كدفاع عن جسدك من المساس؛ فقد تحولتِ لمحامية تدين كل

من في المستشفى، سواء من أطباء، أو عمال، أو تمريض، لمجرد كونها زوجة.. لكن لو كانت آنسة فلن يجرؤ على الاقتراب منها أحد.

. «لماذا لم تخبرني؟»

. «صدقيني، أنا بعدها نسيت، والموضوع لم يشغل بداخلي حيزًا؛ وخاصةً حينما علمت دوافعك ورغبتك في عدم التحدث عن هذا. أليس هذا ما أردتِ أن أعلمه؟ لا بأس.. ها أنذا أقولها لكِ: إنكِ لستِ من نوع النساء الذي يفترق منه الإنسان».

يُخرج العلبة من جيبه مجددا ويقترب منها قائلا: «هل تقبلينني زوجًا لكِ؟»

في الوقت الضائع

لم أستطع التعرف عليها في الوهلة الأولى إلا من خلال اسمها؛ فقد كانت ترتدي ملابس محتشمة، وقد غطَّت رأسها بحجابها، ولا يظهر منها إلا وجهها الصغير الذي غفاه الشحوب، وكساه الذبول، واستحوذ عليه البؤس، لدرجة أنك تستطيع أن تقول بسهولة: إنها فتاة لم تتذوق طعم الفرح والسعادة يومًا!

ولكن لها في مقابل ذلك عينان عسليتان، تبلغان من النقاء ومن قوة التعبير حين تتقدان، أن وجهها يكتسي عندئذ بطيبة وبراءة، لا يملك المرء إزاءهما إلا أن ينجذب إليها.

مريضة مميزة هي، ومن الصعب نسيانها.

تعاملي الأول معها من أسبوع مضى، فاجأتني حينها بدخولها عليَّ بفستان خطبتها الروز، ذي الأكمام القصيرة، عاري الصدر، وشعرها المعقوف على شكل ضفيرة، مع ماكياج بسيط يُظهر جمالها الفطري.

عروس بسيطة، ولكنها مميزة.

أصابتها آلام ضرس العقل قبل أن ترتدي خاتم الخطبة بدقائق، لم تتحمل الألم، تركت الجميع مهرولةً لعيادتي، حينما رآها المرضى بذاك الزي

المميز، أفسحوا لها المكان لتدخل بعد المريض الحالي دون أن تتعرض لملل الانتظار وذل الإلحاح؛ لعل ألمها يزول، وتذهب للاستمتاع بيوم خطبتها.

تصرفها جريء، غير تقليدي، كان من الممكن أن تتحمل الألم تلك الليلة، ثم تأتي عندي في اليوم التالي.

سيطرتْ عليّ دهشتي حينها، ولم أعلّقْ بأي شيء.

تعاني التهابا حادًا منعني من المساس بضرسها العليل.. وصفتُ لها مُسكنًا يهدئ الألم، وعلاجًا يزيل الالتهاب، وحددتُ موعدًا للاستشارة في الأسبوع المقبل.

أتعجبُ من هيئتها، وكأني كنت أتوقع أن يصبح فستان خطبتها الزي الرسمي لزيارتي.

تخيلتها غير محجبة، ودهشتي أنها ترتدي طرحة وليس لفة (اسبانش).

هل يعقل أن ترتدي الحجاب سريعًا هكذا!؟ أو لعلها استغنت عنه في ذلك اليوم!

أثارني فضولي لمعرفة سر هذا، فقلت لها: «مبروك على الحجاب»

استقبلتْ كلامي بصمت حزين، ولم ترد.

أتوقع أنها حاولت الابتسام، ولم يسعفها ثغرها لتنفيذ رغبتها الداخلية من الرد بالصمت، كأسلوب مهذب عن طريق الابتسامة.

وجدتُ الالتهابَ مازال مستمرًا؛ فأعدتُ الجرعة مجددًا على أن تعاود زيارتي في الأسبوع المقبل.

عادتْ في الموعد المحدد. كانت تحمل ابتسامة باهتة، وكنتُ أحمل فضولًا مضاعفًا.

رأيتُ الالتهاب قد زال. يحتاج الضرس الآن لحشو. وضعت حشوًا مؤقتًا على أن تعود في الأسبوع التالي لوضع الحشو النهائي.

توالتْ جلسات العلاج؛ حيث أنها طلبتْ عمل فحص كامل. وجدتُ أسنانها بحاجة لعناية خاصة، من حشو ضروس، وإزالة سوس، وتنظيف أسنان، والتهاب لثة.

هي حالة مَرَضيّة خصبة، وحالة إنسانية مثيرة.

مع الوقت فتحتْ حصن صمتها. أخبرتني دون أن أسألها بأن يوم خطبتها نزعت حجابها لتُساير بنات أسرتها؛ فهن جميعًا فعلن ذلك. لكن العريس فوجئ بهذا، رأت في ملامح وجهه اعتراضًا، وفي عينيه ندمًا عبَّر عنه بالهمس لوالدته بشيء لم تتبينه ولكنها شعرت به، وكأنه يقول «لا أريد الاستمرار، ولننفد بجلدنا قبل أن تحصل على الشبكة، ونستجديها لردها لنا مرة أخرى».

قالت: «هكذا صوَّر لي خيالي. ولأن آلام أسناني عصبية، فقد قامت بعهدها الدائم معي. تركتُ الحفل دون مقدمات؛ فالألم داهمني بشراسة لم أحتملها. لم أدرِ بنفسي وأنا أترك الحفل. وحينما خرجتُ من العيادة عدتُ إلى بيتي سيرًا على الأقدام. كنتُ أشعرُ كأني في حلم. لا أتذكر في أي شارع ترجلت، ولا مَن في طريقي قابلت.. لعلني واجهتُ نظرات تعجب كثيرة!»

«حينما عدت، كان الكلُّ قد انصرف، وطبيعي انتهت خطبتي قبل أن تبدأ»

«نظرتُ لنفسي في المرآة.. أدركت حينها فقط بأني خرجتُ عاريةَ الرأس. لم أتعرف على نفسي للوهلة الأولى.. شعرتُ بالخزي والعار. كيف استطعتُ أن أتجرد من ستري، والخروج إلى الشارع هكذا!؟ لم أحزن على العريس الهارب، ولا على تعليقات المدعوين، ولا على زجر أهلي لي.. كان غضبي من نفسي بسبب خروجي للشارع بتلك الحالة»

شعرتُ بها منكسرة، لكن مع الوقت استعادتْ رونقها. أشعر أني لها طبيب نفسي، أكثر من كوني طبيب أسنان؛ فهي أصبحتْ تأتي لتحكي أثناء إعدادي للأدوات، وكأنها تُفرغ خذلانها حتى تفرغ جعبتها.

تغيرتْ دفة الحديث رويدًا، وأصبحنا نتحدث في كل شيء.. تارةً عن أحوال البلد والوضع السياسي، وتارةً عن دراستها، وتارةً أخرى عن كتبها المفضلة.. اكتشفنا بأن كاتبنا المفضل واحد، ووجدتها تهديني كتابًا له كتبتْ بداخله إهداءً منها لي. حتى ميولنا الكروية واحدة؛ فهي أيضًا تُشجع النادي الأهلي وتحترم جمهور نادي الزمالك؛ لوفائهم المُبالغ فيه.

تثيرني تساؤلاتها التي تفتح مجالات مُتعددة للحوار: «كيف للزملكاوي أن يُطلّق زوجه مثلا، أو يضجر من خطيبته، أو يتذمر من حبيبته، وهو مُنتمٍ لنادي دائم الخسارة رافعًا شعار (سنظل أوفياء)!؟ هل الزوجة بكل ما تفعله من أجل زوجها، لا تستحق التقدير والانتماء، كما يفعلها مع نادٍ يتسبب مع كل مباراة في ارتفاع ضغط الدم!؟»

وحينما رن هاتفي ذات مرة بنغمة «على هدير البوسطة» مُنبئًا باتصالٍ من عالية ابنتي وهو يشدو «يخرب بيت عيونك يا عالية شو حلوين!» قالت: «لولا أن فيروز صاحبة الصوت الساحر، والأداء الراقي، والإحساس العالي، هي من قالت هذا لهاجمها المُستمعون قبل النُقّاد على هذه الجملة (يخرب بيت عيونك)».

يمر الوقت معها كالطيف المارق عبر السحاب. ليتها وُلِدت قبل ذلك؛ لتكون صديقتي، ثم حبيبتي، لتصبح زوجتي وأمَّ أبنائي. هل يُعقل أن نقابل شقيقًا للروح بعد نفاد العمر!؟

الآن، أعلم أن اليوم ستكون جلستها الأخيرة؛ فأنا قد انتهيت من عملي.

فهل أتباطأ وأجعلها على مرتين ليطول الوقت قليلًا؟ أم أنهي اليوم ما بدأته وأحرم نفسي من رؤيتها؟

تحول

كم تكره (سعاد) ملامحها التي تراها دومًا، من خلال تعليقات صديقاتها همسا فيما بينهن عليها! حتى والدتها هي الأخرى، تزيد شعور البغض لتلك الصورة، التي تراها كلما وقفت أمام المرآة، حتى كرهت مجرد المرور من أمامها! أصبحتْ أمنيتها الوحيدة أن تتبدل خِلقتها، ولتكون مثل الفنانة المفضلة لديها. لجأتْ لكتاب من السحر ليقوم هو بدور عمليات التجميل التي لم تكن قادرة على تحمل تكاليفها، ستقرأ التعويذة الآن.. وآخر صورة تقع عيناها عليها قبل النوم ستصبح عليها عند الاستيقاظ.. ستنتبه إذن ألا تنظر لصورتها في المرآة قبل النوم لتوديعها للمرة الأخيرة؛ حتى لا تجد نفسها كما هي.. ستشاهد حلقة من مسلسل فنانتها المفضلة على اليوتيوب.. شاهدته أولًا كمرة تجريبية، ثم قامت بتقطيع المشاهد حتى تظهر الفنانة وحدها؛ فلا تتأثر التعويذة بشكل من يشاركها البطولة.

انتظرت حتى نامت أمها وأشقاؤها، نظرت لنفسها مليًا في المرآة في حميمية وداعًا لشخص قرر السفر والابتعاد، ربما تكون المرة الأخيرة التي تلتقي فيها بهذه الصورة، بل هي الأخيرة بالفعل إذا صحّت تلك التعويذة. قرأتها وشاهدت المشهد الخاص بالفنانة (حسناء) التي يعرضها الآن تجلس في بهو الشقة تتحدث في الهاتف، على الحائط صورة كبيرة لنمر يجلس على

حافة حمام السباحة، أمامها منضدة تحوي الكثير من الفاكهة المتنوعة، ومجلة لها غلاف عارضات الأزياء.

هذا المشهد تحديدًا في مسلسلها الأخير أثار إعجابها كثيرًا؛ فهي تظهر بكامل رونقها وجمالها، بوجهها الأبيض، رقيق الملامح، الخالي من الزينة، وهذا ما تريد؛ أن تصبح خِلقتها جميلة دون مستحضرات تجميل؛ فهذا لن يجعل أمها تعلّق على أنها شبه والدها كلما رأتها، وأن عليها أن تضع مساحيق التجميل طول الوقت لعلها تأخذ لونا أبيض كأمها. وماذا عن أنفها الأفطس وشفتيها الغليظتين؟ تهمس في ألم: «لن أصبح قبيحةً تحمل ملامح أبيها بعد الآن». لم تلبث إلا وذهبت في نوم عميق، تمني نفسها فيه باللون الأبيض، والأنف الدقيق، والشفاه الرقيقة، والملامح الأنثوية الصاخبة.

في صباح اليوم التالي استيقظت من النوم وهي تشعر بشيء غريب يتملكها، كأنها ليست هي! تشعر بأن جسدها ثقيل على غير العادة! تنظر في ساعة يدها فلا تجدها، تتحسس موضعها لتكتشف بأن يدها أصبحت ناعمة أكثر من المعتاد، وكأنها فرو! تفتح عينيها بفزع على اتساعهما متذكرةً التعويذة، فتنهض لتنظر في المرآة ما الذي حدث!!

تكتشف الكارثة؛ لقد حوّلتها التعويذة للنمر الذي كان في خلفية مشهد البطلة!! همست في ذعر: «ماذا أفعل الآن!!؟»

«كيف لي أن أتحول!؟» تزأر في صمت كالليث الجريح، تقترب من المرآة وتشاهد نفسها غير مستوعبة حقيقة ما حدث، تبتعد قليلا ثم تعود مُجددًا لترى نفسها عن قرب، قد صارت عيونها واسعة بلون عسلي رائع، تبتسم

هنيهة ثم تخفض رأسها بحسرة: «لو كانت هذه العيون على وجه بشري لصرتُ أجمل!» تفتح فمها لتجد أنيابًا بارزة، ولسانا طويلا، تغلق فمها سريعًا: «هذه أسنان تحتاج لتنظيف!»

تحاول أن تقف أمام المرآة لترى طولها، فتكتشف أنها أصبحت من ذوات الأربع، ولم يعد مُتاحًا لها أن تقف مُنتصبة بعد الآن! يصدر منها امتعاض مرتفع رغمًا عنها على شكل زئير!

تفزع من الصوت الصادر منها، قد تحوّل هو الآخر.. تفتح أمها الغرفة كعادتها لتوقظها، فتجد أمامها نمرًا ينظر في المرآة، وفراش ابنتها فارغًا؛ فتصرخ في فزع ثم تسقط مغشيًا عليها! تقترب من أمها لا تدري ماذا تفعل لها، تحاول لعق وجهها لعلها تفيق، لكنها تخشى أن تفتح عينيها لتراها فيُغشى عليها مجددًا.

فرّتْ من البيت خشية مما يحدث، وقررتْ أن تصعد إلى سطح المنزل؛ لعل الأمور تهدأ وتستوعب حقيقة ما هي فيه، فتستطيع من خلاله التصرف. تصعد الدرج في قفزة واحدة، فتنتشي لقدرتها الجديدة، وللحظة تريد أن تجري في الفضاء الواسع وتكتشف كل ما هو جديد، وتعيش حياتها على هذه الهيئة الجديدة غير مكترثة بتوابع الكارثة التي أصبحت عليها. تتركز الآن في عضلاتها طاقة هائلة للقفز، وفي الليل عيناها ستلمعان في الظلام كجمرتين، ولها أسنان حادة.

لكن الجانب السلبي وجود أربع قوائم غير مريحة، أيضا وجود ذلك الذيل الذي يتحرك طليقًا وغريبًا عن إرادتها، وصوتها ذو النمط الواحد غير

المعبِّر عن انفعالاتها المتنوعة على هيئة زئير، ولن تستطيع أن تأكل ما كانت تشتهيه من حلوى وفواكه متنوعة.

قبل أن تدلف إلى السطح اِسْتَطْلَعَته في حذر، تنظر لما حولها لتتأكد من عدم وجود أحد يتلصص عليها، تتذكر أن عمارتها عالية عن بقية العمارات المجاورة، وهذا يتيح لها حرية الحركة دون الخوف من أن يراها أحد. جلست في ركن منزوٍ تفكر فيما حدث، وكيف ستكون الأمور بعد ذلك.

في أثناء هذا، كان شقيقها (أسعد) قد وصل الشقة ورأى أمه في غرفة شقيقته مغشيًا عليها، فهم بإفاقتها ليجدها تهلوس من الفزع: «إن ابنتي اختفت! النمر في الغرفة!» وكلام كثير لم يتبينه. ساعدها على النهوض وذهب بها إلى الفراش لتستريح. لم يهتم لكلامها؛ إذ ظن أن شقيقته في مدرستها، وأن أمه قد أصابها شيء ما جعلها تهلوس هكذا. وكعادته في مواجهة أي موقف مثير أن يصعد للسطح ليهدئ أعصابه القلقة، ويُسكِن دقات قلبه المُرتفعة.

يفكر فيما قالته له أمه، ليجد نمرًا يفترش أرضية السطح، جالسًا كالقرفصاء ينظر إليه في تأهب. جزع وهم بالهرب، ولكن للحظة لم يشعر بالخوف؛ فالنمر لم ينقض عليه، هو فقط ينظر له، ويشير بذراعه ويزأر بصوت خفيض. جاءت في مخيلته فكرة مجنونة، ولكنه أراد أن يجربها.

. «أمي قالت أشياء لا أستطيع استيعابها، ولكن إذا كنتِ شقيقتي فارفعي ذراعيك»

قام النمر برفع ذراعيه!

. «رباه! كيف حدث هذا!؟ كيف ستخبريني!؟ والأهم هل طباعك الآدمية مازالت موجودة، أم أن طبع الكائن الجديد غلب عليكِ؟ ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ وكيف لي بتحويلك من جديد؟ ماذا فعلتِ بنفسك!؟»

شعرتْ بالخجل، لم تدرِ بماذا ترد سوى أن تسير تجاهه خطوة ثم تعود أدراجها، وكأنها تدور حول نفسها بدافع التفكير معه فيما آلت إليه الأمور.

. «ماذا أفعل بكِ الآن!؟ شقيقتي تحولتْ لكائن مفترس، ضخم الحجم، لا أستطيع الظهور به في أي مكان خوفًا على حياتها؛ فمن سيراه حتما سيحاول قتله»

بدأتْ تفتح فمها على مصراعيه مُظهِرةً أنيابها، تُخرِج لسانها الطويل ليلامس شفتها في حركة دائرية مفادها:

. «إني جائعة!»

. «هل كان جوعك هو ما ينقص!؟ هل ستأكلين كوب زبادي كعادتك؟ بالطبع لا: فحجمك يشير بأن مصنع الزبادي كله لن يقضي على جوعك! سأنزل لأحضر لكِ كمية من الهامبورجر غير المطبوخ علّه يفي بالغرض»

ثم رفع إصبعه في وجهها منبها إياها: «حذار أن تدخلي غرفة الطيور لتأكلي منها شيئا! فأنتِ تعلمين أمي جيدا؛ لا تسمح بالمساس بطيورها حتى لو كنتِ ابنتها.. تحملي قليلا حتى أعود؛ لعلني أيضا أستطيع معرفة ماذا فعلتِ بنفسك»

جلست مكانها في استسلام، وكأنها تخبره بانتظارها له.

نزل (أسعد)، ليجد شقيقه الأكبر (مُحسن) لا يفهم ماذا حدث لأمه، فأخذه من يده خارج غرفتها، وأخبره بكل شيء. ضحك الأخ الأكبر من هذا الهراء: «من الواضح أنك (عامل دماغ جامدة)».

. «إذا كنتَ لا تصدقني فهي فوق السطوح، ولا تخف فهي تعرفنا ولن تؤذيك»

صعد مُحسن، ليرى النمر أمامه يجلس في استكانه. ولعلم شقيقته السابق بخوفه من الحيوانات لم تتحرك، فقط ظلت تنظر إليه بصمت. نادى شقيقه بفزع: «أسسسعاااد!!»، محاولا أن يسيطر على رعبه الداخلي مما رأى!

كان (أسعد) قد دخل غرفة شقيقته؛ عله يعثر على أي شيء يدله على ما حدث، فوجد التعويذة، فعلم ما فعلته ولكنه لم يدرك لماذا اختارت هيئة النمر؛ فهي كانت تريد التحول لوجه الممثلة (حسناء)، فمن أين أتى هذا النمر!؟

قرر أن يذهب للمشعوذين؛ علهم ينجدونه، ويفكون الشفرة، فتعود كما كانت آدمية، ولو حتى بأي وجه آخر. صعد للسطح ليلبي نداء أخيه (محسن)، وليسأله إذا كان يعرف أحدًا من المشعوذين؛ فمعارفه كثر.

شعر (محسن) بالراحة حينما أتى (أسعد) وسأله: «هل أنت متأكد أنها لن تؤذي أحدًا؟»، فأخبره: «إننا معها الآن في مكان واحد، هل فعلت شيء؟ هي (سعاد) شقيقتك وهي تعلم هذا، ولا خوف علينا منها؛ الخوف على أمك إذا ما علمت أن ابنتها تحولت لحيوان مفترس»

اقترب (محسن) من (سعاد) قائلا: «سنلهو كثيرًا يا صغيرتي. سنخرج معًا في منتصف الليل؛ لنزور من كانوا يثيرون عداوتنا، ويظنون بأن لا يقدر عليهم أحد؛ فرؤيتك وحدها كفيلة أن تقذف في قلوبهم الرعب»

فزع (أسعد) من فكرة شقيقه: «ماذا تقول!!؟ هل ستستخدم أختك في إفزاع الناس!؟»

. «هوّن عليك. أولا هي لم تعد في هيئة سعاد؛ فهي الآن نمر له شأنه وكرامته في المجتمع. وثانيا لن أُفزع إلا من يستحق، وقام بإفزاع الآمنين من قبل»

نظر (أسعد) إلى (سعاد) غاضبا: «لعلكِ تشعرين بالراحة الآن! لماذا أردتِ التحول!؟ لماذا اعترضتِ على خِلقتك وأردتِ تبديلها بوجه آخر!؟ ماذا جنيتِ الآن سوى تحول كامل قد لا نستطيع تغييره!؟ ستكونين مع شقيقك الأكبر كبلطجية فهل هذا يسعدك!؟»

شعرت (سعاد) بالإثارة، وهزت رأسها في حبور أن نعم؛ فهي ملَّت من حياتها الرتيبة، وروتينها اليومي، ولا تجد غضاضة فيما آلت إليه الأمور.

. «ما الضير في تحولي لكائن مفترس!؟ أليس هذا أفضل من أن يتم تحولي لفيل مثلا أو حرباء!؟ أنا سعيدة بهيئتي الجديدة ولا شك، ولكنني أريد الاستقرار في مكان مفتوح، وليس على هيئة كرة عملاقة فوق سطح، لا أستطيع الاستمتاع بصوتي خشيةَ أن يعلم الجيران فيبلغون عن وجودي» تحادث نفسها.

نزل (أسعد) و(محسن) يكملان حوارهما؛ خشية أن تصعد أمهما لترى (سعاد) بعد التحول.

وبعد أيام من الإرهاق، و(أسعد) يحاول قدر استطاعته، ولكنه لا يعلم ماذا يفعل؛ فالتعويذة من الواضح أن المشعوذين لا يعلمون عنها شيئا؛ فدم الديك والوطواط لم يفعلا شيئًا، ونخاع الحمار ولسان الأفعى لم يفعلا أيضا شيئًا؛ «لقد أنهكت قواي في الحصول على تلك الأشياء لتأكلها سعاد فتعود، ولكنها لم تعد»

انهار (أسعد)، وفي لحظة غضب خلع حزامه، ونزل عليها بكل ما أوتي من غضب، وشعور بضيق ذات اليد، تحاول (سعاد) جاهدة ألا تؤذيه، وألا ترد على ما يفعل، ولو حتى بالزئير في وجهه ليكف عما يفعل بها، ولكن... في لحظة ما، لم تستطع سوى أن تزأر في وجهه مكشرةً عن أنيابها، وكأنها تهدده أن يكف عن ضربه لها؛ فهو يؤلمها.. لم يستوعب أنه أمام كائن مفترس إلا في تلك اللحظة، ووقتها سقط مغشيًا عليه.

أفاق ليجد نفسه في المستشفى يعاني من انهيار عصبي.

كانت (سعاد) تجلس تحت سريره في المستشفى، بعد أن استطاعت الدخول بمساعدة (محسن)، الذي نبهها بأن تصعد ليلًا على شجرة الحديقة الخلفية، المقابلة لنافذة الغرفة، ثم الوثب، بعد أن يشير لها بالأمان، وهو ينتظرها داخل الغرفة فاتحًا نافذة الغرفة على مصراعيها؛ فهي تريد

الاطمئنان على شقيقها مهما حدث. صعدت لتجلس جواره، تريد إخباره بأنها قطعًا لم تكن تقصد كل ما حدث، وأنها تسامحه على غضبه، وضربه لها، لكنه حينما فتح عينيه بوهن، ورآها قبالته تنظر إليه، صرخ في فزع، وكأنها لم تعد شقيقته. سمعتْ جلبة تنذر بقدوم طاقم الممرضات، ففرت من النافذة هاربة.

ظلت تسير هائمةً على وجهها، إلى أن دخلت حديقة عامة، من خلال القفز على سورها القصير. أرادت أن تتوارى عن العيون، فدخلت غرفة صغيرة من الواضح أنها كانت مسجدًا في السابق، تتوخى الحذر؛ لا تريد أن تؤذي أحدًا، حتى وإن كانت تشعر بالجوع.

في بداية النهار، وجدت شيخًا ملتحيًا يهم بالدخول، تظاهرت أنها نائمة؛ عله لا يشعر بالفزع إذا ما وجدها مستيقظة قبالته، ولكنه عندما رآها أصابه هلع، فقام بطلب النجدة ومساعدة رجال الأمن، الذين اقترحوا إثر هدوئها ألَّا يطلقوا عليها النار، وليأخذوها لحديقة الحيوان للاستفادة بوجودها، بدلًا من عدم وجود حيوانات مفترسة في الحديقة. قاموا بتخديرها، فلم تشعر بشيء، إلا وهي داخل قفص كبير في حديقة الحيوان.

تنظر من خلال القضبان، وكأنها محبوسة في قضية مُخلة بالشرف، ترى مجموعة من الشخصيات السادية ينظرون إليها بتشفٍ، وكأنها مُجرم يستحق أن يُسجن مدى الحياة. وقفت لتقيس حجم ذاك القفص ومدى اتساعه لحركتها، فصارت جلبةٌ تشي بأنهم منتشين بحركتها، زاعمين بأنهم من استطاعوا إجبارها على الحركة من خلال صوتهم المرتفع، وأمرهم لها بأن

تنهض وتقوم؛ يظنون أنفسهم في سيرك، وعليهم ترويضها، وعليها أن تصنع حركات فقط من أجل إبهارهم.

حمقى لا يعلمون شيئا! القفص ضيق بحق لا يسع لخطواتها، ولا يعطيها مساحةً للمشي سوى لخطوتين ليس إلا! لم يفكروا في تيبس عضلاتها، ورغبتها الطبيعية في أن تعدو، وتقفز، وتمشي خطوات واسعة، وأن تصطاد فريستها!

هنا انتبهتْ أن عملية التحول قد بدأت في الاكتمال، وصفاتها الآدمية قد بدأت في التلاشي تدريجيًا؛ فها هي تزأر الآن بغضب؛ لأنها جائعة، وليس لأنهم استفزوها بعِصيِّهم البغيضة. تقول في نفسها: «لو خرجتُ لهم سأعلّمهم معنى أن تحترم وتبتعد عمن تخشاه وهو حُر طليق! سأعلّمهم بأن ليس من الشجاعة والقوة أن تستفز من لا يستطيع أن يرد عليك!»

تزأر بقوة لعل الحارس يسمعها فيفعل شيئا، ويأتي لها بطعام يسد جوعها. وزأرت وزأرت، لتستيقظ صارخة! فتتلفت حولها وتنهض سريعًا. تنظر في المرآة، لتجد نفسها على هيئتها الآدمية؛ فها هو ظهرها مفرود، وقامتها لم تعد محنية؛ فهي الآن ليست من ذوات الأربع، وها هو جسدها مغطى بالجلد وليس بالشعر، وها هي عيناها السوداء وبشرتها السمراء.. ودارت حول نفسها بخفة ضاحكة؛ فهي كانت تحلم.

نظرت إلى التعويذة، التي نامتْ قبل أن تقرأ منها حرفًا، وقامت بتقطيع الورقة، ولأول مرة تشعر كم هي جميلة.

ذات الشعر القصير

فتاة الثلاثين ذات الشعر القصير، يطلقون عليها لقب (ولد)، وهي تتجاهل، تكتفي بابتسامة باهتة، ونظرات حادة تُنذر بكونها لن تغفر لأمها قصّ شعرها الطويل وهي ابنة السبع سنوات، حتى لا يعذبها في تسريحه والعناية به.

كانت أصغر من أن تدرك ما تفعله سيدة المقص في رأسها، ولا تفهم سوى كلمات لامبالية بنبرة مبهجة من أمها: «كانت هذه قصتي المفضلة ومازالت»، «سيصبح شعرك أثقل وأجمل». لم يهتم أحد بأن تجلس الصغيرة على المقعد الخاص بالحلاقة المقابل للمرآة الكبيرة، بل كانت واقفةً أمام سيدة المقص بعيدة عن المرآة، مُرتدية ما يشبه ملاءة ملفوفة حول جسدها الصغير، لتمنع تطاير الشعيرات من الاستقرار على ملابسها النظيفة. لم ترَ ماذا يُفعل برأسها. انتهت السيدة تحت تشجيع حار من الأم، وكأنها وُفِّقت في إحراز هدف مستحيل في مرمى الأعداء.

حينما دخلت الصغيرة إلى غرفتها سريعًا، أضاءت اللمبة الكبيرة لتشاهد ماذا حدث لشعرها الذي تتباهى بطوله أمام قريناتها. حينها أصابتها الفاجعة وهي تشاهد ما يشبه رأس شقيقها يطل أمامها من المرآة. بكت وصرخت حتى بُحّ صوتها، وواستها أمها بكلمات لم تفعل بداخلها شيئًا. انتظرت أن ينمو مجددًا كما وعدتها أمها حتى لا تجعل مقصًا يمسه ما تبقى من عمرها. أخبرتها يومًا جدتها في حسرة، بعدما علمتْ بردّ فعلها النفسي والجسدي، أن شعرها قد جزع ولهذا لن ينموا مجددًا!

كيدهنّ عظيم

تحتسي (نداء) كوب عصير المانجو المُثلج وهي تجلس قبالة حاسوبها المحمول لتطّلع على رسائل المُتابعين لها. تلقت رسالة على صفحة حسابها الشخصي من سيدة تقول فيها «هناك أخرى تحوم حول زوجي، أراه منجذبا إليها، وبصفتك استشارية في العلاقات الأسرية أريد نصيحتك»

ردت عليها قائلة:

«هل لديكِ دليل أم أنه مجرد ظن؟»

. «رادار الزوجة أعلى كفاءة من أي أدلة مادية لو كنتِ تعلمين. هو من أخبرني عنها ودلّني عليها رغم أنها ليست في قائمة الأصدقاء لدي»

. «وماذا تريدين تحديدًا؟ أن يبتعد زوجك عنها أم أن تبتعد هي عنه؟»

. «هو لن يبتعد وإن أبدى ذلك. ستظل في مخيلته طالما لم يستطع الحصول عليها، ولهذا ألجأ دوما لمراسلتها وإخبارها باللين أولا بأنني لن أسمح لأحد أن يأخذ مني ما ليس له؛ فهو ملكي وحدي وليس مجالًا للمشاركة»

. «وهل تجدي طريقتك هذه؟»

. «نعم»

. «وكيف تعلمين ذلك؟»

. «أعتقد بعد رسالتي هذه ستبتعدين عن زوجي بهدوء.. نعم رسالتي إليكِ أنتِ منذ البداية، وأعتقد أنكِ تعلمين عن شخصيتي كزوجته للوهلة الأولى من الحوار، كما علمتُ شخصيتك كـ.....»

. «كيف تجرؤين!؟»

. «لم أستخدم جرأتي بعد. ابتعدي حفاظا على شهرتك واسمك، التي تحاولين صنعها في مجال الإعلام والميديا.. اعتبريه تهديدا إذا أردتِ»

أنهت الحوار، ودمها يكاد ينفجر من كل اتجاه في جسدها. هي لم تحبه أو تقترب منه كما تظن تلك المريضة. زوجها دائم التعليقات لديها، وهي تعلّق على ما يثيرها على صفحته كأي صديق في القائمة ليس إلا. أراد أن يعرض لها مرارا كم هو منجذب إليها، ولكنها لم تعطِ له أي بارقة أمل، كانت تكتفي بالتجاهل أو تغيير الموضوع؛ فلو قطعتْ علاقتها وحذفت كل من يبدي إعجابه بها، لصارت صفحتها خالية إلا من سواها.

رسالة الزوجة أثارت حنقها، وأرادت أن ترد لها صفعتها؛ فليست هي من تُتَّهم فيما ليس فيها، وقررت أن تتجاوب مع ذلك الصديق وتبدي دلالها أمامه، وكأنها تريده كما يريدها، ولكنها تتمنع بدافع شكها في مشاعره تجاهها. تمنعها السهل أثاره أكثر للاقتراب، ودلالها ساعد في انجذابه، ومزاحها جعلها في عينيه كاملة الأوصاف بلا خطأ واحد.

تخبره بكونها لن تتسبب في خراب بيته وتطليق زوجته، يطمئنها بأن البيت قد تم تخريبه بالفعل على يد زوجته، وأنهما في حكم المنفصلين؛ فهي دوما في بيت أهلها.. تشكّك فيما يقول فيرسل لها صورة محادثة

(سكرين-شوت) من رسالة زوجته الأخيرة له ورده عليها باقتضاب.. تسأله: «لِم آلت الأمور بينكما لهذا الحد فقد أستطيع الصلح بينكما؟»، يجيب بأنها قد أهملت في نفسها كثيرا بعد الإنجاب، بالإضافة لكونها خدعته؛ فهي تعاني من مرض جلدي في قدميها لا ينفع معه شيء، وأنه يكاد يتقيأ كلما رآها، ويرسل لها صورة لزوجته لتتأكد من صدق ما يدعي.

يلح عليها لإتمام الزواج بينهما، فتخبره على استحياء: «ولكنك لا تعلم عني شيئا سوى ما أُظهره للعامة»

. «ما عرفته يكفيني.. لا أريد أكثر من ذلك»

وتتوالى الاتصالات وتزيد مساحة الاقتراب، ويحكي لها كل شيء عن ماضيه وكونه تزوج مرتين أثناء عمله في أحد البلاد العربية بعقد عرفيّ عند محام، وظروف زواجه المقيتة؛ فلولا دخوله على زوجته قبل الزفاف ما جعل الزيجة تكتمل، وأنه صاحب الفضل على أهلها في كل شيء.. وحتى يحسم الموقف أخبرها بأنه قد طلّقها مرتين سابقا وفي المشاجرة الأخيرة أصبحتْ في حكم الظهار.. هو فقط ينتظر أن تطلب هي الطلاق، وهذا ما ستفعله فور زواجه، وهنا تكون علاقته بها انقطعت للأبد.

كادا أن يحددان موعدًا لإعلان خطبتهما، إلى أن سألها عن ماضيها فأخبرته بكونها مُطلقة.. يُصدَم ويحاول معرفة السبب.. تخبره باقتضاب بأن الأمر لم يستغرق أسابيع، وبأنها كانت زيجة تقليدية وتم فشلها سريعا.. يتعاطف معها، ثم يخبرها في اليوم التالي بأنه منسحب من تلك العلاقة؛ فهو يريد أن يتزوج من عذراء.

تغضب قائلة: «من يتحدث هنا تزوج ثلاث مرات، ومع ذلك له شروط في الزوجة الرابعة!!»

. «أنا رجل، وإذا كنت سأتزوج بأخرى فستكون آنسة وليست مدام.. لقد خدعتِني ولم تخبريني من قبل بهذا»

. «ظننتُ بأن هذا الأمرلن يفرق معك، على حسب كلامك معي قبل ذلك»

. «أعتذر؛ فلن أستطيع الزواج بمن ليست عذراء»

تُنهي معه الاتصال وترسل لزوجته قائلة: «هذا الزوج لا يستحق أن تعيشي معه وليس أن تغيري عليه؛ فهو ليس أهلا للأمانة؛ فقد أرسل لي صورك ومحادثتك معه» وضمَّت ملفًا يحوي كل صورها ورسائلها له، ورسائله التي يهين فيها زوجته ويهتك سترها، وطلبه الصريح في الزواج منها، ورغبته في طلاق زوجته ولعنه الدائم لها.

ثم أرسلت له تخبره: «لم تُخيِّب ظنوني؛ فأنت لم تحبني يومًا كما ادّعيت، وما قلتُه لك كان اختبارا لادعاءاتك؛ فأنا لم أتزوج بعد.. هنيئًا لك حياتك القادمة»

ثم قامت بحظرهما.

لستُ عاهرة

في حصة التربية الدينية طلبت المعلمة من كل فتاة داخل الفصل أن تقرأ آيات من السورة القرآنية المقررة عليهم.. حينما جاء الدور على (جنى) اعتبرتها هواءً وطلبت من التلميذة التي تجلس جوارها القراءة دون الالتفات إليها.. سألتها إحدى الطالبات التي تجلس في المقعد الأول المقابل لمنضدة المعلمة «لماذا لا تقرأ (جنى)؟» أجابت: «لأنها سافرة، متبرجة»

.«ماذا تعني هذه الكلمات؟»

نظرت تجاه (جنى) بتحد قائلة: «هي تعلم ماذا أقصد»

(جنى) الطالبة الوحيدة في المدرسة الثانوية بنات التي لا تغطي رأسها؛ فالحجاب أصبح كزيّ مُتعارف عليه في المدرسة بعد أن كان إجباريا في المرحلة الإعدادية. هي لا تجد مبررا لارتدائه طالما لم يعد مُلزما كزي دراسي للمدرسة، وترى نفسها صغيرة على ارتدائه؛ فهي لم تصل لعمر أمها وخالاتها بعد.. إذن لماذا ترتديه!؟

هي دوما تشعر بالاضطهاد، وخاصّةً من مُدرسة التربية الإسلامية ولا تعلم السبب، وحينما نعتتها بالسافرة وأنها قطعا تعلم مقصد المعلمة، لم تُعلِّق بشيء سوى بابتسامة بلهاء؛ فهي حقا لا تعلم ما مقصد المُعلمة.

سألت أمها عن ذاك المعنى دون أن تسرد الواقعة، فأخبرتها بأن المقصود به (مكشوفة الوجه) وهي كناية عن عديمة الحياء. تشعر جنى بالصدمة! لماذا تنعتها المعلمة بهذه الصفة البشعة وهي بريئة منها!؟ فهي دوما

تشعر بالحياء وليست بالجريئة في أي شيء مهما كان؛ ففي الوقت الذي تخرج فيه زميلاتها اللاتي يغطين رؤوسهن مع شباب في نفس المرحلة العمرية أو أكبر قليلا، سواء بعد اليوم الدراسي أو بدلا من حصص الدروس الخصوصية، هي لا تحادث أحدًا قط ولا حتى بتبادل التحية.

هي لا تمزح مع المُدرسين الشباب مثلا كما تفعل بعض زميلاتها، وتتعجب من أن يصل المزاح لمد اليد والمصافحة بالكف! فهذا بالنسبة لها من الكبائر.

نعم تنورتها قصيرة مقارنةً بتنانير زميلاتها، ولكن ما علاقة ما ترتديه من ملابس تراها أنيقة، بأخلاقها التي لم يتعامل معها أحد قط ورأى منها سوءا.

«حين يأذن الله لي بالهداية لن يمنعني أحد. لا أخجل من كوني لا أقيم الصلاة وهي أولى بالأداء، أفأخجل من عدم تغطية رأسي!؟ لماذا!؟ ومن أجل من!؟ الله أحق بترضيته من عباده الذين يُنصّبون أنفسهم وعّاظا. لا شأن لأحد بما أرتدي فأنا لا أتدخل فيما يرتدون مهما بدا في عيني باليا، أو لا يمت للذوق بصلة»

عزمتْ جنى أن تترك ورقة لمُعلمتها في كشكول التحضير الخاص بها، ولن توقِّع باسمها؛ فهي حتما ستعلم من المرسل.

«إذا لم يكن النعت بالعُهر من قذف المحصنات، فما هو إذن؟»

استقبلتْ المعلمة الرسالة بغضب، ونظرت لجنى بتحدٍّ، ثم كظمت غيظها وتجاهلت الموقف وكتبت على السبورة (تسميع).

أسوار الحياة

على مائدة طعام تتوسطها باقة ورودٍ زاهية، جلست (نهلة) بكامل زينتها المُتمثلة في فستان وردي اللون، واسع عند الخصر، مما يجعلها كزهرةٍ متفتحة تنتظر من يستنشق عبيرها في زهو؛ لتكون في استقبال (خالد) عند قدومه.

جالت في خاطرها ذكريات لقائهما الأول، وشغفه للقرب منها ومحادثتها عبر الهاتف، وكم رقَّ قلبها له عندما رأت منه حبًّا تفضحه نظراته، وتراه في لهفته للحديث معها.

(خالد) زميلها في العمل، الذي شد بأزرها في وفاة والديها، إثر حادث طريق نجت منه وكان له أثرٌ نفسي جسيم. كان يشعر بآلامها؛ فقد تعرض سابقًا لمحنة مشابهة. كانت تفضفض له كثيرًا وتبكي وتنتحب وتثرثر بلا انقطاع، كان يسمعها فقط. كانت تعلم بأن لها مساحةً خاصةً لديه تجعلها تتحدث كيفما شاءت وإن لم تنتظر منه ردًا؛ فالوحدة ستقتلها والصمت سيُعجِّل بموتها. هي من بدأتْ مراسلته لأنها تعلم نشأته اليتيمة بحكم زمالتهما في العمل. لم تكن تريد أكثر من التحدث مع شخص مر بنفس الظروف حتى لا يضيق بها ذرعًا، وقد أحسنت الاختيار.

نمت الصداقة بينهما على استحياء دون أن يستدعيها أحدهما؛ فالتواصل، والتآلف، والمرور بنفس الظروف، أرض خصبة لنمو العلاقات الأبدية.

لم تعترف لنفسها بأنها تحبه، وهو أيضا لم يذكر لها أنه يحبها.

هما فقط قررا أن يعيشا معًا؛ فهما لا يستطيعان الاستغناء عن بعضهما البعض؛ كل منهما وجد وليفه وروحه التائهة في الآخر. إذا كان هذا هو الحب فهما إذًا حبيبان، فلماذا لا يتزوجان إذا!؟

كان شرطُ خالد الوحيد وسبب عزوفه عن الزواج رفضَه لفكرة الإنجاب؛ فلن ينجب طفلا ليتركه يتيما. كان يحكي لها هذا في فترة الصداقة الأولية، حين أخذ راية الحديث ليعبر عن مكنوناته، ويفضفض بما يخبئه داخله عن عيون الغرباء.

كانت تتفق معه كثيرا، وتخبره أيضا برغبتها في عدم الإنجاب؛ ليس خوفًا من يُتم الطفل؛ فالأعمار بيد الله، ولا تدري نفس ماذا تكسب غدا؛ ولكن خوفا على مستقبل الوليد في بلد تخنق صغارها بغازات الإهمال، أو تدهسهم تحت عجلة قطار، أو تعتقلهم إذا صدح صوتهم في الآفاق؛ الوحدة خير مُعين للحياة في هذا المجتمع البغيض.

تتذكر أول اتصال لها به، بعد محاولات مُضنية منه بأن تتصل به؛ فقد ملَّ التواصل بالرسائل عبر الإنترنت، ولا يستطيع في معظم الأحيان التعبير بالكتابة كما تهوى هي.

قد كان إثر قراءتها لمنشور له عن ذكريات طفولته المُشردة الخالية من وجود الأب.

كان يحكي باستفاضة عما عاناه بعد موت والده، وهو في الخامسة من عمره، تاركًا إياه فرخًا صغيرًا مع الطيور الجارحة المتمثلة في أعمامه، ومع مهيضة الجناح المتمثلة في أمه. أجبروها على الزواج من أحدهم، وإلا لن تنال حقها

وحق وليدها في الميراث، وهي لم يكن لها دخلٌ يغنيها وجع الفاقة. وافقت على مضض؛ فهم أهل ابنها ولن يقسو عليه أحد مهما كان، ولكن هذا لم يحدث؛ ففكرة أن يرث هذا الصغير معهم كانت تؤرق مضجعهم، فتذرعوا الحجج الواهية، بعد إهانات متواصلة عن سوء تربيته، الذي يجعله يطلب بجرأة حذاءً جديدًا بعدما انقطع حذاؤه أثناء لعبه كرة القدم مع زملائه؛ فهو طفل مُسرف، عديم المسؤولية، لا ينفع معه تقويم. فلتتركوا الميراث إذن غير مأسوف عليكم. وبالطبع ليست أمه أهلًا لتكون وصية على أمواله؛ فقد تعلَّم التبذير على يديها. وتم طلاقها وطردها بعد التنازل عن كل شيء.

خرجت الأم بوليدها تطرق أبواب الحاجة مُرتدية ثوب الذل، تحتضن ولدها معتذرةً له عن مالا دخل لها فيه. فهم الصغير كل شيء، وقرر أن يكون هو الحامي لأمه، فذهب للأسطى حسن جارهم القديم، صاحب ورشة تصليح السيارات، وطلب أن يعمل لديه. وبالفعل كأن الله أرسله ليكون اليد الحانية التي تربت على آلامهما، ولكن لا يوجد شيء دون مقابل؛ فالثمن البديهي كان زواجه من أمه. ظل يعمل لديه في الورشة مقابل كل شيء يقدمه له ولأمه. كان يتمنى أن تنتهي الأيام سريعًا ليصير رجلًا لا يحتاج لأحد. ماتت أمه بعد تخرجه من كلية الحقوق وصار رجلا تفتخر به، وكأنها أدَّت رسالتها في الحياة. ترك زوج أمه بعد أن سدد الثمن من طفولته ومراهقته وحبه للعالم.

انتهت نهلة من قراءة المنشور على الفيس بوك وهي في ذهول وإشفاق على خالد الذي طالما اتهمته بأنه دوما ناقم على كل شيء دون مبرر، وساخط على المجتمع، ورافض وجود قيم وصلة رحم، وفاقد الثقة في جميع من حوله، وممتنع تماما عن فكرة الزواج عموما والإنجاب خصوصا.

هنا فقط وجد اتصالًا منها.

صوتها يختنق بالعبرات قائلة: «سامحني يا خالد.. أنا آسفة.. الآن فقط فهمت كل شيء.. حقك عليّ أني ظلمتك وكنتُ أوقاتًا كثيرة أوجعك من غير أن أقصد»

تنهيدة راحة تعقبها حين أفاقت من شرودها. أعقبتها دمعة ذرفت من عينيها، لم تدعها تكمل مسيرتها في الانحدار على وجنتها حتى لا تفسد زينتها، وقد هامت مع موسيقاها وعطرها وتصورها للحظة اللقاء حتى إنها لم تنتبه لوصوله.

. «كل عام ونحن معًا يا نهلة»

تلتفت له باسمة ثم تعانقه باشتياق دون كلمة.

أمام غرفة العمليات، وبأعصاب محترقة كتلك السجائر التي بين يديه، وقف (خالد) منتظرا النتيجة التي سيترتب عليها سعادته أو شقائه.

بعد طول انتظار جاءه الرد: «هي في معية الخالق.. ادعُ لها.. الساعات القادمة إذا تجاوزتها بنجاح فستعبر مرحلة الخطر بسلام»

يعبث بمحموله ليجد رسالة من زوجته غير مقروءة تم إرسالها منذ ساعات ولم ينتبه لها

«زوجي وحبي الوحيد/ خالد

أرجو أن يتسع صدرك لما سأتلوه عليك الآن.. لقد كتمتُ أمرا هاما عنك قبل زواجنا. فأنا قدرتي على الإنجاب تكاد تكون منعدمة؛ فعادتي الشهرية لا تأتي سوى بأدوية ولا تفعلها تلقائيا إطلاقا، وهذا ما شجّعني للموافقة على رغبتك

في عدم الإنجاب، وليس خوفي على مستقبلهم كما أخبرتك. وبعد إجراء تحاليل عدة للتأكد من مدى خصوبتي، وجدتُ أن الحل الوحيد لحدوث حمل هو المنشطات.. ابتهجت لقدرتي على التحكم في جسدي، تارة في دمائي الشهرية، وتارة أخرى باختيار موعد حملي، أو حدوثه من عدمه.

وعلى مدار حياتنا معا لم أتناول قط أي منشطات لحدوث حمل.. ولكني وجدت أن دمائي لم تظهر رغم انتظامي المعتاد على تناول الأدوية الخاصة بها.. شككتُ في الأمر وأجريت تحليل حمل على سبيل السخرية، ولكن المفاجأة أنني حامل! لم تسعني الدنيا من الفرحة؛ فقد نجح التخصيب دون أي تدخل مني! أصبحت أمًّا لنطفة تحدت كل القوانين وتعلقت في جدار رحمي، فكيف لي أن أخذلها أو أتخلى عنها!؟

كنت أعلم علم اليقين بأنني أحبك، ولكنني اكتشفتُ اليوم فقط، أنني أحبك أكثر من نفسي. كل ما أريده الآن أن تسامحني»

يكاد ينفجر غيظًا وقهرًا محدثًا ذاته: «ما هذا الغباء يا نهلة!؟ أتحاولين الانتحار خشيةَ غضبي إذا علمتُ بكونك تحملين طفلي!؟ أي هراء هذا الذي فعلتِه!؟ كيف صوَّر لكِ خيالك بأنكِ تعاشرين شخصا مُرعبا إلى هذا الحد!؟ نعم، قد أكون عنيفا في غضبي وأقل شيء يثير حفيظتي، ودوما أنتظر منك الحب والحنان وإن لم أبادلكِ سوى بالدلال وأحيانا بالعصبية، لأنها مخزون مشاعرك الذي يفاجئني دوما بأنه لا ينضب مهما ارتويت منه. كنت بهذا أختبر مشاعرك ولم يكن مقصدي أن أضغط على أعصابك. فقط كان لدي هاجس بأنه لو حبك لي حقيقي كحب أمي لي ستحتويني مهما فعلت. نعم، كنت أخشى أن أنجب طفلا فأتركه وأموت ليحيا بعدي يتيما بلا سند، ولكن هذا كان

تفكيري قبل الزواج. بعد الزواج لم نتطرق إلى الأمر ولم أكن لأفاتحك في موضوعٍ قد انتهينا منه قبل الارتباط، ولكن من أخبرك بأن قناعاتي لم تتغير، وأن حياتي لم تتجمل بوجودك فيها!؟ من أخبرك بأنني في كل صلاة لا أسجد لله داعيا أن يرزقني منك أنتِ دستة أبناء!؟ هذا الجنين الذي تحدى القوانين الطبية كما تقولين لهو منحة الله واستجابة لدعائي. كيف طاوعك قلبك على محاولة قتله وقتلك!؟ ألهذا الحد أثير في نفسك الخوف!؟»

«ليتها تعلم بأنني لم أكن أريد سواها.. يا الله هو ولدي بين يديك وهي زوجتي حالها لا يخفى عليك، فكما رزقتني إياهما بلا حول مني ولا قوة ردهما إلي»

دموعه تنهمر عجزًا ورجاءً متمتما بنداء الكريم: «يا رب! يا رب!»

يخرج الطبيب قائلا: «حمدًا لله على سلامة المدام.. سرعتك في إنقاذها ساعدت على نجاتها»

يحتضن الطبيب بفرحة ويسجد لله شاكرا حامدا؛ فقد تخطى الأسوار التي وضعها للاستمتاع بالحياة، وعادت الدماء تجري في أوردته من جديد.

أولاد الحرام

خرجتُ من عملي قبيل المغرب، لأستقل سيارة أجرة تقلني إلى منزلي، بعد يوم شاق من العمل المتواصل، وحين رأيت أحدها أشرت إلى سائقها، فسألني عن وجهتي، ثم أذن لي بالركوب. وبدأ في التحدث:

. «لم أكن أنوي إيصال أي ركاب، لكن لا أدري لماذا وافقت»

. «لماذا!؟ فاليوم مازال في أوج نشاطه»

. «قلبي يبكي قهرًا على رضيعي! لقد اختفت الرحمة من قلوب الأطباء! يريدون مبلغ أربعمئة جنيه كي يعطوه حقنة تبقيه على قيد الحياة، وإن لم يفعلوا سيموت بعد ساعة ونصف!»

اندهشتُ من كلامه المؤثر وتمتمت: «أسأل الله أن يشفيه».

. «كيف ذلك!؟ لقد ورث ابني مرض السكر من والدته، ويعاني من تضخم في القلب، وأنا لن أستطيع توفير هذا المبلغ في هذا الوقت القليل، كما أنني من المستحيل أن أطلب مالًا من أحد»

يمسح وجنتيه بياقة قميصه وكأنه يبكي. أنا لا أراه، ورغم أني أجلس في الخلف، ويمكنني إلقاء نظرة على المرآة أمامه لأرى تعبيرات وجهه، إلا أنني لم أفعل؛ فقد نظرتُ إلى النافذة المجاورة وخضتُ صراعًا عميقًا وأنا أقول لنفسي:

«هذه القصة تشبه قصصًا كثيرة من تلك التي يستعملها أصحاب المواصلات؛ فهم يستدرون عطف الزبون، لينهبوا منه أكبر قدر ممكن من

المال بنفسٍ راضيةٍ، وبكل تسامح منه؛ فهناك من أشاع هذا المثال كثيرًا على الفيسبوك لتحذير الناس، قصة (الولد المريض الذي يحتاج لعلاج ضروري)؛ حتى لا ينتشر الموضوع أكثر، وكأننا أصبحنا نعاني من وباء النصب على الجميع.

ثم تخاطبني نفسي السمحة قائلة: «ماذا إن كان يحتاج هذا المبلغ حقا لينقذ به ولده!؟»

فيقاطعنا صوت السائق منهيا: «أستغفر الله العظيم! أعمل إيه يا رب!؟»

فأرد بقوة: «أرأيتِ؟ من يحتاج بالفعل لن يفعل هذا؛ لن يبكي وينهنه ويتمتم الأدعية بصوت مسموع»

. «﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾».

. «ماذا إذا ضاعفتُ له الأجرة؟ أظن هكذا يصبح الأمر عادلًا؛ لن أعطي له المبلغ الذي يريده، وفي نفس الوقت سأحتسب زيادة الأجرة مساعدةً مني له، بنية أن يفك الله كربته إذا كان مكروبًا، وبنية الصدقة إذا كان نصابًا»

. «تبًا لمن يجعلوننا لا نستطيع التفرقة بين المحتاج بحق، وبين صاحب الوجوه المتعددة!»

أبحث في حقيبة يدي عن أوراق النقود لأحسم موقفي.. لا أجد سوى ثمن الأجرة فقط دون زيادة. يستمر السائق في استدرار عطفي بطريقة غير موجَّهة، عن طريق ترتيل الأذكار، حانقًا على عدم وجود رحمة في قلوب العباد «أستغفر الله! الفرج من عندك يا رب!»

تثيرني نفسي السمحة لأخذ موقف أكثر إيجابية، وأحاول تذكُّر هل لي معارف داخل المشافي الحكومي، وما اسم الصيدلية التي تعمل فيها صديقتي والتي لن تتوانى عن مساعدته بإعطائه تلك الحقنة ذات الأربعمئة جنيه، والتي تحمل بريق الحياة لوليد لم يعرف من الحياة سوى شهقة الولادة. بل سأعطي له رقم هاتف جمعية خيرية وهي ستتولى هذا الأمر، ولكن مهلا! فالجمعيات لن تساعد أحدًا اعتباطًا هكذا؛ لابد من تحريات مسبقة للتأكد من صحة ادعاءاته، وهذا بالمقابل سيأخذ وقتا أكثر من الساعة والنصف التي يحيا الآن على شرفها! ماذا يمكنني أن أفعل لمساعدته وأنا بالفعل لا أحمل هذا المبلغ!؟

تفحمني نفسي القوية بردها: «أربعمئة جنيه ليست بالمبلغ الكبير كما يدعي؛ فهي ليست أربعة آلاف مثلا! لماذا لا يذهب لأحد من أهله، أو أقارب زوجته، أو أصدقائه، ليجمع هذا المبلغ!؟ وخاصةً أنه سائق تاكسي، ويستطيع رد المبلغ لأصحابه في خلال فترة قصيرة، وربما يجد من يتحمل عنه عناء الدفع كاملا.. لِمَ لا يحاول!؟ هل حياة ابنه لا تستحق أن يُجرِّب ذل السؤال، بدلا من ذل الإلحاح كما يفعل بطريقته المواربة هذه!؟»

توقفت السيارة مُعلنةً عن وصولي إلى وجهتي، فأعطيتُ له أجره دون أن أزيد عليه. أخذها على استحياء، ثم نظر إلى المبلغ، ووجَّه إليّ نظرة نارية قاسية مفادها:

. «وأنا اللي عمال أستغفر قدامك!؟ أومال نقاب إيه اللي لبساه!؟»

هلاهيل

باتساعِ سواد السماء في غسق ليل الشتاء كان اختبارُ صبري، ومازال فجر الجبر نائمًا لا يلوح في الأفق.

يا حقي المهدر منذ سنوات، قد حان وقت استقبال العزاء فيك. لن أنصب مأتما ولن أنوح عويلا؛ فقط سأنتظر المواساة بدعاء «عظم الله أجرك»

لم يكسرني طلاقي؛ فإن لم يكن يريدني فلا حاجة لي به؛ فالغدر في شرعي طلاقٌ حتى وإن ظللتُ زوجته على الورق. ما كسرني حقًا طعنه في شرفي، ويشهد الله أنني لم أكن بغيا قط.

كنتُ له الزوجة الصالحة لزوجها، وأعدت على نفسي مرارا بأنه جسري للعبور لجنة الخلد كما وعدني ربي. نعم، لا تتعجبوا هكذا؛ فقد كنتُ ملائكية، غريرة، ساذجة، أتعامل بأخلاق القديسين والرهبان، لا أريد من الدنيا شيئًا سوى رضا خالقي. لم تكن عندي غريزة تقض مضجعي كل ليلة لأهرع لتلبيتها بالزواج، ولم يكن قلبي يدق عشقا لألبي نداءه.. تزوجت لأن الزواج طاعة، وقد كنت أريد الاقتراب من الله بقدر استطاعتي.

ليته فهم بأنني فقط اتقيتُ الله فيه، ولكنه ظنّ بأنني قطعًا لدي عيب ما أخفيه، أو فضيحة مشينة أداري عليها بطاعتي الزائدة، وطيبتي المُبالغ فيها، وقام بتطليقي غيابي بعد أن سرق كل شيء.

لم أحزن على سرقته مهري -ذاك الذي ارتضاه- ولكن ما قهرني فعلا أنه سرق مقتنياتي التي كان يطلق عليها لفظة (هلاهيل). فعل بي ما لم يفعله الرجال؛ فقد كان مجرد إمعة لرأي أمه. نار غيرتها تشتعل في جوفها مني ليلا، ودهاؤها يكويها نهارا، وأنا لا أكترث. فأشعلتْ الفتن بيننا حتى تم الطلاق، دون أن أعلم ما جرمي؛ فقد عرض عليّ يومًا أن أذهب لقضاء عطلة الأسبوع عند أهلي وسيلحق بي فور انتهاء دوام عمله. ففعلت، ولكنه لم يأتِ قط. وحين عدتُ لمنزلي وجدتُ الشقة خاوية على عروشها مع إخباري من قِبَل حارس العمارة أن «البيه قد نقل كل شيء وسيُسلّم الشقة آخر الشهر». مادت الأرض بي وقتها ولم أستطع الاستيعاب، وشعرت بسهمٍ سام يخترقني. أتصل به لا يجيب، أذهب إلى عمله لا أجده.. أكاد أجن؛ لم يحدث بيننا خلافات أو مشاجرات من أي نوع.. لا يوجد سوى تدخل أمه المبالغ فيه، وهذا اعتبرتُه ابتلاءً أستطيع التعامل معه.

لم يأتِ في مخيلتي أنها ستؤمره بطلاقي فيفعل بسهولة طالما وعدته بأنه لن يخسر شيئًا ماديًا. وقد وفَّتْ بوعدها له وظللتُ في المحاكم سنوات مُستغلةً نفوذِها في عرقلة سير القضية.

ظلّت مرارة القهر والظلم تملؤني بغزارة، حتى شعرتُ أنها ستنفجر ذات يوم من فرطها داخلي. حتى عزمتُ على القصاص بيدي؛ فالمظلوم له طاقة على التحمل حتى لا يتحول لظالم وهو في طريقه لجلب حقه المهدر، وخاصّةً إذا لم يكن هناك شيء يضاهي إهانته وشعوره بالكسر. ظُلمِي قهَرَ أمي وعجَّلَ بدنو الموت إليها، بعد أن حملت على عاتقها الخوض في شرف ابنتها، والطعن

في أخلاقها. ناءت بالحمولة حتى وهنت، وانكفأت على وجهها تاركة فتيل الرماد مشتعلا.

كم ناديته باسمه الحق وكنت أقول له: «حقي يا حق!»

عشرة سنين عجاف لم أكف عن الدعاء لحظة. كنتُ أثق بنصر الله ووعده، ولكن الواقع لم يحقق ذلك. والقانون لا يحمي الضعفاء. حقي المُهدر لم يأتِ، ولم يتم تعويضي بأي شيء.

أمي كانت تريد أن يتم تعويضي بالزواج من آخر، يكون ردًا على ما قيل عني يومًا تارة بأنني بغي، وتارة بأنني أرض بور لا رجاء من استصلاحها، وتارة أخرى بأنني سليطة اللسان، وبأني... وبأني... ويكون مكافأة صبري وظلمي. أما أنا فلم أفكر في الزواج من آخر كتعويض، بل كنتُ أريد أن تعود لي ممتلكاتي وهم صاغرين بردها مُجبرين. ومع مرور سنة تلو الأخرى، ولم تتحقق أمنية أمي ولا رغبتي.

فُترتْ قيمة ممتلكاتي في عيني؛ فأشيائي الجديدة بعد مرور كل تلك السنوات إذا عادت ستعود مُستعملة ومستهلكة وقد يزداد حزني أضعافًا حين رؤيتها بذلك الشكل.. إذن لم أعد أريدها.

ثم أي حق هذا الذي يعود بعد كل تلك السنوات!؟ هل ضياع سنوات العمر في المحاكم بين السوابق والمتهمين يعوض!؟ هل انتظاري للنطق بالحكم يوم الجلسة وقلقي ليلتها، ليخبرني حاجب الجلسة بأن الأحكام ستعلن غدا، لأجده في النهاية تم التأجيل! ويتكرر هذا الأمر على مدار السنوات، وكأنها قضية أمن قومي، وليست تبديد قائمة وسرقة منقولات!!؟

والآن، أنظر إليه قبالتي مصلوبًا على عمود خشبي، يعتذر نادما على ما قد بدر، وجواره أمه مصلوبة على عمود آخر، بعد أن عزمتُ على الأخذ بالثأر.. ينعق كالغربان آملا أن يقول شيئًا قد يعوّضني، ولكن هل سنين العمر تعوض!؟ هل الطعن في الشرف قابل للترميم!؟ هل ستعود أمي للحياة مجددا!؟

أسلّط عينيّ تجاهه وأقترب منه بنظرات ممتلئة بالاحتقار، قائلةً بغضب السنوات وانفعال العمر المنقضى:

«هل تدري فداحة ما فعلت بي؟ فقد حرّمت على نفسي العبث، واللهو، والتمتع عموما بكل مباهج الحياة؛ لأراها معك لأول مرة.. نصيبي الحلال عليه أن يحصد زرع صبري وحرماني، وليأخذ لؤلؤة نقية لم تمتد إليها يد ولم ترها عين قط.. ماذا فعلتَ!؟ عبثتَ بي وانتهكتَني وسرقتَ أغلى ما أملك: عزة نفسي وكرامتي؛ كل هذا لعلك ترضى: فرضا الزوج طاعة! ولكن هل قدَّرت؟ هل تستحق فعلا أن تكون أنت بكل دناءتك زوجا لي أنا!؟ ليتك كنت مُعتديًا أو مغتصبًا ولم تكن لي زوجًا! كنت سأجد لك مبررًا لما فعلتَ بي. لقد ألقيتَ بي في العراء ليدوسني المارة كزهرة استنشقتْ رحيقها ومُزِّقت أوراقها بلا مبرر سوى أن تُرضي سادية والدتك. لك حقٌ أن تتفاجأ بتحولي لما تراني عليه الآن؛ فبعد أن قذفتَني في عرض البحر توقعتَ أنني لن أنجو، وقطعًا سأموت، إن لم يكن من المفاجأة، سيكون من عدم قدرتي على مقاومة الغرق، بعد أن أنهكت قواي بالتجديف طوال الرحلة. لقد وافقتُ على إتمام الزيجة لتوسّمي فيك تقوى الله. كيف رسمتَ على محياك صورة الورع والشاب الهادئ

المحترم، وأنت بداخلك شيطان!؟ كيف غرَّك حلمي أن تكون أداة لتحطيمي!؟ هل هذا جزاء مُعاملتي الحسنة لك!؟»

ابتعدتُ قليلا لأجلب زجاجة كيروسين، ثم اقتربتُ بخطوات بطيئة لأفرغ ما بها فوق رأسه على مهل قائلة:

. «ماذا قلتَ في شرفي؟»

. «لم أقل شيئا! فما عرفتك غير طاهرة»

. «أتقولها الآن بعد أن قذفت حصني بالباطل!؟»

. «لم يحدث! أمي من دبرت كل شيء!»

. «تبيعها الآن لتنجو!؟»

. «أنا فسيلتها وحصاد زرعها»

أنظر تجاهها وأفرغ زجاجة كيروسين أخرى فوق رأسها كما فعلت مع ابنها منذ قليل.

. «وأنتِ أيتها الحرباء، ماذا تقولين فيّ؟»

. «ابنة كريمة وابنة أخ حليم»

. «الآن تنعتينني بالكريمة وأبي بالحليم بعد كل ما فعلتِ!؟ فقد سلّمني أبي لكم عروسًا فرددتموني إليه مكسورة!»

«إن لم أكن تزوجت كانت أمي ستقول: لم يأتِ من يستحق ابنتي بعد. أما بعد ما جاء من استكانت بجواره مطمئنة، ومن غفت في حضنه آمنة، لتصحو عارية في عرض الطريق، كان عليها تحمُّل سهام الألسن التي لا تعرف

الرحمة (بنتك لو كانت كويسة زي ما بتقولي مكانتش اتطلقت).. تتخيل تعليقاتهم، وتعلم أن ابنتها قد ظُلِمت، وتنتظر على أحرّ من الجمر عوض لكسرها يجبر، ويكون فرحةً لها قبل أن يكون لابنتها، لكن هذا لم يحدث. لم يطرق بابي عريس واحد بعد طلاقي. وكيف سيحدث بعد أن طعنت في شرفي!؟»

. «الشيطان يا ابنتي حنَّكني، والغيرة أعمتْ قلبي؛ فعيني لم ترَقط مثلك وعقلي رفض تصوُّر أنك حقيقية. وجودك أظهر سوادي ونقاؤك كاد يخنقني»

. «ماذا تظنين أني فاعلةً بكم؟»

. «إذا أشعلتِ فينا الحرائق لن نلومك، ولكن سعة خُلُقك أرجو أن تشملنا»

. «وأنتَ أيها الإمعة ماذا تظن أني فاعلة بك؟»

. «فلتعفي ولتصفحي؛ ألا تحبين أن يغفر الله لكِ!؟»

. «الله!؟ الآن تذكر الله!؟ أم لأنك تعلم بأنني أعلم قدْره الذي تجهله، والذي لولا جهلك به ما فعلت بي ما فعلت؟»

. «لكِ كل الحق؛ فقد بِلْتُ على نفسي من الخوف. أما يكفيكِ هذا؟»

. «لا، لا يكفيني. سأقيم حد الله في السرقة.. والآن. وسأبدأ بأمك»

أشعر بصراع داخلي: فاستخدام القوة المفرطة يجلب الشر: فما كِدتُ أثبّت يديها أمامها بعد تهديدي بأني سأقطعهما جزاء سرقتها لي، إلا وشعرتُ بارتجافة جسدي، وروح يدها الحية تتحرك تحت قبضتي، وصوتها مُستغيثا

بي ألا أفعل، وعيونها الباكية بدموع حارة تترجاني أن أعفو.. للحظة كاد أن ينتصر الشر عليّ، وأقطع جسدها أمامي حية كما فعلوا بي.

تتصارع قوى الشر بداخلي أن أقتص منهما وهما أحياء، وأستمتع بعويلهما؛ لعل ناري تبرد وجرحي يشفى. أخيرا أشعر أنني قوية وبأنني قدرت على هذا الجبروت الذي نغص عليّ زهرة شبابي؛ فقد كانت عيناي ثابتتين لا ترمشان لحظة، لو فيهما خاصية لترجمة ما أشعر به لكانا احترقا أمامي. أستمتع بتذللهما وبسباب ولدها لها. يجول بخاطري معنى طالما سمعت عنه كثيرا «القوي الحق من يستطيع أن يعفو بعد أن يقدر على من ظلمه ويجعل رأسه تحت سيفه.. هنا فقط يشعر بالقوة؛ فله مطلق الحرية في القصاص أو العفو.. هو صاحب القرار»

ابتعدتُ عنهما لأجلس واضعةً ساقًا فوق الأخرى لأملي عيني بمنظرهما وكلٌ منهما يحاول ترضيتي بأي هراء. لا تعنيني كلماتهما في شيء؛ ما يعنيني حقا ذلهما أمامي وشعورهما بأنني الأقوى.. هنا فقط عَلَت شفتيّ ابتسامة وتنهيدة مفادها: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

طمّني عليك

تخرج (هدير) من مبنى كليتها مُسرعة، وفي بالها أن تبحث عن صديقها (عمرو)، ذاك الذي كانت تهيم عشقا في هواه دون أن تخبره بذلك، ودون أن يُشعرها بأنه يعلم حقيقة مشاعرها تجاهه.

كانت تعلم بأنه الوحيد القادر على مساعدتها في البحث المطلوب منها؛ لدرايته الشاملة باستخدام الكمبيوتر والإنترنت، وهي مهما وصلت لمستوى من الخبرة والبراعة قطعا لن تضاهيه. ولكن كيف لها الآن أن تجده وهو قد تخرَّج قبلها بعامين وأخباره انقطعت عنها، بعد أن قرّر الارتباط بصديقة دراسته بعد قصة حب طويلة كللها بالخطوبة، والتي اشترطتْ عليه أن يقطع علاقته بهدير؛ فعيناها تفضحان اشتياقها المخفي له.. لكن حبه لنانسي طغى على صداقته لهدير، وقرر الابتعاد متذرعا بالتحاقه بعمل لا ينتهي في مجال الكمبيوتر؛ علَّه يستطيع أن يكوّن نفسه سريعا للزواج من محبوبته.. فهمتْ (هدير) هذا وابتعدت في صمت، ولم تحاول بعدها أن تظهر في حياته مجددا، بعد أن قرر بإرادته الاستغناء عن وجودها في حياته، لكنها قطعا لم تستطع نزعه من داخلها. وفور ظهور أي شيء يُذكّرها به، تقرر أن تبحث عنه ليلبي احتياجها وتكون حجة قوية لرؤيته دون إثارة الشك. كانت تلك أول مرة تقرر البحث جديا عنه؛ فالبحث المطلوب منها خاص بمشروع تخرجها، وتريد الانتهاء منه وتسليمه قبل انتهاء ذلك الوقت الضيق المطلوب منها.

أثناء خروجها مهرولةً تلمحه يخطو سريعًا، وكأنه يريد اللحاق بشيء ما.. معه ملف يحوي بعضًا من الأوراق.. نادت عليه سريعا: «عمرو! عمرو!». انتبه للصوت والتفتْ ليبحث عن مصدره، فوجد هدير.. اتسعت ابتسامته ولمعتْ عيناه من السعادة فور رؤيتها، وأقبل تجاهها ناسيا ما كان يهرول خاطيا له منذ قليل. وبعد السؤال عن الأحوال وجدتْ صديقتها (بُشرى) تشاركهما الحوار، وتخبر (هدير) بأن البحث المطلوب نستطيع الحصول عليه من مكتبة الأزهار في شارع جانبي أمام بوابة الجامعة.

كان هو قد اختفى في وسط الزحام، دون أن يستأذن منهما، وكأن شلال زحام الطلبة الخارجين باندفاع أخذوه في مجراهم عبر الخروج من الجامعة برمتها.

تلتفت (هدير) بحثا عنه كأم فقدت وليدها بعد أن ظلت تنتظره باشتياق أمام مدرسته طوال فترة اليوم الدراسي، حدَّ أن نبهتها صديقتها بأن البحث عن (عمرو) ليس من المهم الآن؛ «فلا تنسي بأن المكتبة تغلق أبوابها في مواعيد محددة، وقد قاربت».

ترد هدير: «عمرو يعلم مكان المكتبة ويستطيع وصفها، أو توصيلنا إليها دون جهد»

هنا تحمست لها بشرى: «إذن لنبحث عنه سريعًا»

كان عمرو يكتب في ورقة داخل الملف الذي يحمله، ساندا على الحائط، كطالب مجتهد يكتب نتيجة اختباره التي عُلّقت للتو.

اقتربتا منه، فانتبه لهما وابتسم لرؤيتهما دون أن يعتذر عن انسحابه غير المُبرر، وكأن العلاقة أكبر من أن يتخللها اعتذار أو أقل من أن يهتم بها.

أخبرته بشرى: «نريدك أن تصف لنا مكان مكتبة الأزهار»

فقال بابتسامة عفوية: «وهتدفعوا كام؟»

ابتسمت هدير لمزحته؛ فهو لم يتغير، أسلوبه، طباعه، طريقة كلامه ومزاحه غير المتوقع في أوقات عدة، اكتظاظ وقته.. وعدم اكتراثه لها.

ذهبوا جميعا للمكتبة، ودخلت بشرى لتصوير البحث المطلوب، ولحقت بها هدير تخبرها أن تصوِّر لها نسخة أيضا، وتركتها للمتابعة وخرجت لعمرو وعيناها تحملان من الكلمات الكثير والكثير من الفقد والاشتياق واللهفة والحب.

يستأذن منها للانصراف حتى لا يتأخر عن عمله.

تخبره بعينيها: «خليك شوية.. لسة مشبعتش منك.. انت كنت واحشني أوي»

يرد عليها وكأنه فهم رسالتها الصامتة: «الغي الحظر على الفيسبوك والإيميلات؛ ليصبح الاتصال مُتاحًا كما كان»

ترد عليه قائلة وكأنها تزيح عنه عبء مسؤوليتها:

«مفيش حاجة بينا هترجع.. أنا بس كنت عايزة أطمن عليك».

الثمرة الناضجة

يجلس قبالتها في ثقة، داخل غرفة استقبال منزلها، التي تحوي مقاعد ذهبية قديمة الطراز، ومائدة رخامية مستديرة تعلوها مزهرية صغيرة من الكريستال، وبرواز فضي يتوسط الحائط يحوي آية الكرسي. تتطلع إليه في تعجب يخفي توترا داخليا، ثم قطعت صمتها قائلة:

. «لماذا تريد الزواج بي؟»

. «هل أخبرك الصراحة؟»

. «أرجوك»

. «منذ أن وقعت عيناي عليكِ تمنيت أن أحضنك»

تقوم من مقعدها منذرةً بأن الزيارة انتهت، بينما يتنحنح هو ويهب واقفًا: «ألم تطلبي الصراحة!؟»

تلتفت إليه وتقول بينما تحدق في عينيه: «الصراحة، وليس بتلك الجرأة!»

. «حسنا سأكون أقل جرأة»

. «أسمعك»

. «لأنني أريد أن أفتح عينيّ صباحًا لأرى وجهك، وليكون آخر ما تراه عيناي قبل النوم»

. «هذا عن سببك إذن، ماذا عني أنا؟ ما الذي يجعلني أوافق على الزواج منك؟»

. «حضني»

. «أفندم!؟»

. «حضني لا يقاوم.. أعني أن حضني يستحق أن تستمتعي بدفئه»

. «أرى أنك مندفع في الحديث، كلماتك صادمة، إنك حتى لا تحسن انتقاء ألفاظك»

. «وأنا أرى أنكِ خجولةٌ أكثرَ مما يجب!»

. «أتوقع أن هذا طبيعي، أن أتحلى بالحياء؛ فهذا لا يقلل من شأني!»

. «أعلم هذا، ولكنني أجيبك بصراحة مطلقة ودون تجمل»

. «هناك شعرة فاصلة بين الصراحة والوقاحة»

. «أريد أن يكون عندي المساحة الكافية لأنظر إلى وجهك دون أن أُتّهم بالوقاحة.. أريد أن يصبح من حقي أن أغوص في ملامحك دون أن تتذمري كما تفعلين الآن»

. «إذًا، ستتزوجني لأن ملامحي نالت إعجابك!؟»

. «وهل يُنقِص ذلك السبب من قدر طلبي!؟ ألا تُعتبر حاجتي للتمتع برؤيتك سببًا كافيًا لإتمام الزواج بالنسبة لكِ!؟»

. «ألا تعتبر هذا تفكيرًا سطحيًا!؟ أن ترتبط بفتاة لمجرد أن خِلقتها نالت استحسانك!»

. «لا.. لا أعتبره كذلك؛ فهذا بالنسبة لي سبب كافٍ. هل جربتِ معنى أن تعيشي مع أحد لا تطيقين رؤية وجهه؟ أو هل حالفكِ الحظ لرؤية وجه شعرتِ معه بالهيام والتآلف من الوهلةِ الأولى؟ لقد جربتُ الحالتين؛ فقد كنتُ زوجًا لامرأة لم أكن أطيق النظر إلى وجهها؛ فقد كان صارم الملامح، حاد النظرات.. بينما لم أصدق أن أرى وجه امرأة تحمل ملامحه براءة الطفلة، وعفوية المراهقة، وحنان الأم، وذوق ورِقّة الأكابر. طيبة نظرتك تفيض على وجهك نورًا مُضاعفًا.. طُهر روحك ونقاؤها يشعّان صفاءً على ملامحك.. هل يرضيك هذا؟»

. «حسنا.. سيخبرك أبي رأيي النهائي»

. «أنا في انتظاره منذ رأيتك»

تطرب بداخلها من هذا الاقتحام المفاجئ، الذي يريد الحلال ويسعى إليه مهما بدت العراقيل أمامه؛ فهو حتى لم يعرف بعد ما هو اسمها، أو كم مضى من عمرها، أو ما هي دراستها، إنه لا يعلم أي تفاصيل تخصها!

لقد رآها بالأمس فقط، حين ركبت بجواره في سيارة الأجرة، التي تقلها لبلدتها بعد انتهاء رحلة عملها اليومي، ومحاولته المستميتة للتحدث إليها عن أي شيء، وإن كان بسؤال خارج السياق، يطرحه بلا أي هدف أثناء الرحلة: «هل رأيتِ هذا المبنى المتهالك على الأرض الزراعية؟»

تنظر للنافذة بجوارها: «للأسف، لم أنتبه له»

.«إنهم يتحايلون على القانون ببناء مسجد فوق هذه الأرض الزراعية، ثم يبنون فوقه دَورًا أو دورين للسكن، فتأتي جهات مختصة من الحكومة، وتهدم الأدوار العُليا، بينما تترك المسجد»

ينبئها حدسها الأنثوي أنه يريد بدء حوار معها؛ فمنذ أن ركبت إلى جواره وهي تشعر بأن عينيه تخترقانها، تارةً يتحجج بأنه يعرف من تشبهها، ويطلب منها معلومات عن أي شيء يخصها، فيساعده على تذكر مكان رؤيته لها، كاسمها بالكامل، مكان عملها، أو عنوان سكنها، ولا يسعفه صبره للمماطلة أكثر فيسألها مباشرة: «هل أنتِ مرتبطة».

تجيبه باقتضاب: «لن تفيدك إجابتي في شيء!»

يخبرها حاسمًا بوجه مبتسم: «حتما ستفيدني؛ فأنا أريد أن أتزوجك»

تحمر وجنتاها، وتطرق رأسها خجلا قائلة: «ليس لدي أي رد»

وتدير رأسها ناحية النافذة، دون أن تلتفت إليه، حتى تصل إلى البلدة.

نزلت من السيارة دون أن تجيبه بما يرضيه، ثم أشارت إلى تاكسي آخر يقلها إلى منزلها. كانت مبتهجة بهذا الرجل الجريء، الذي داعب بحديثه أنوثة كادت تنساها، بعد تخطيها سن الأربعين دون أن يطرق بابها رجُلٌ واحد.

ألقت التحية على والدها، الذي ينتظرها ليتناولا وجبة الغداء معًا.

أثناء تحضيرها للمائدة، كانت تسرد على والدها تفاصيل يومها، كعادتها فور عودتها من الخارج، مهما كان سبب خروجها، لكنها ترددت في أن تحكي موقفها مع هذا الرجل، الذي أعطى لها بطاقته الشخصية الخاصة بمحل عمله، قبل أن تنزل من السيارة، راجيًا إياها أن تتصل به.

وبينما كانت تجيبه بحسم: «لن يحدث»

. «لماذا؟»

. «أنا لا أتصل بمن لا تربطني به صلة أو علاقة عمل»

. «كيف ستحدث تلك الصلة وأنا لا أعلم عنك شيئًا!؟ اتصلي فقط لن تخسري شيئًا!»

. «قطعا سأخسر»

. «ماذا ستخسرين!؟ إذا كنتِ تقصدين خسارة الرصيد، فأعطيني رقم هاتفك وسأتصل أنا»

. «سأخسر مبادئي»

ويُلحّ: «لأجل خاطر النبي اتصلي بي»

وتعود للرد بأسلوبها الصارم: «عليه الصلاة والسلام. فمن أجل النبي لن أتصل؛ إنه هو من يمنعني: فقد علّمني بأنني غالية، وكريمة، وعلى من يريدني أن يتكبد عناء البحث عني، والوصول إلى داري دون تدخل من جانبي»

ينصت إليها والدها، ولا يعلق سوى بالتربيت على كتفها:

. «أحسنتِ فعلًا يا ابنتي. واضح أنه كان يريد أن يُسلّي طريقه»

نسيتْ الموقف بالفعل فور سرده لوالدها، وإن كانت لا تزال بداخلها بهجة لم تزل؛ فحين تشعر المرأة بأنها وجبة شهية يتمناها أحدهم، لهو أفضل من شعورها بأنها ثمرة قد أصابها العطب وعزف عنها الجميع.

في اليوم التالي، كانت تتنزه مع والدها ليلًا، وحين دخلا إلى السوبر ماركت لشراء مستلزمات المطبخ كعادتهما، وجدته في نفس القسم يبتاع مشترياته. نكزتْ والدها في ذراعه التي تتأبطها وهمست له بأنه هناك، هذا الواقف الذي يرتدي (بلوزة) خضراء. نظر أبوها فاهمًا ولم يعلّق، واستمرا في اختيار ما يريدان شراءه.

في اليوم الذي يليه سبقها والدها ليدير السيارة، منتظرًا إياها للتنزه ليلا، لتجده واقفًا مع والدها مُحييا إياها بعيون تخترقها، مصحوبة بضحكة تشي بأنه انتصر، واستطاع الحصول على كافة المعلومات عنها، وليس هذا فحسب؛ لقد طلب يدها الآن من والدها. ثم يصعدان معًا، ويتركهما والدها على انفراد بينما يقوم بتأدية واجب الضيافة.

تتذكر كل هذا وهي تحسم قرارها بالرفض.

لا يناقشها والدها؛ فهي صاحبة القرار الأول والأخير، وهذه حياتها وحدها، وليس لأحد أن يتدخل في قرار يمس مستقبلها ولا حتى والدها ذات نفسه؛ فقد صارت طفلتُه ناضجةً بما فيه الكفاية.

تقول بينها وبين نفسها: «هو جريء للغاية، ولستُ مقتنعةً بفكرة أن يرتبط أحدهم بفتاة لمجرد رؤيته لها في المواصلات»

بينما لم يستسلم الخاطب لرفضها غير المبرر، فيظل يحاصرها أينما ذهبت، وكأن رفضها له زاده إصرارًا عليها. تعيش هي صراعًا بين أنوثتها التي تحترق اشتياقا لمن يرنو إليها، وبين عقلها الذي لا يصدق أن تضحك لها الأيام بعد عبوس السنين، وتَوَلّيها عنها متجاهلة وجودها واحتياجاتها.

كانت تخشى ألا تكتمل سعادتها كما تعودت أن تفعل معها الدنيا، تخشى أن يتركها لأي سبب بعد أن تكون قد اعتادت على وجوده، تخشى على قلبها الجريح ألا يستريح؛ فالوحدة في شرعها ضمان للقلب ألا يصير كسيحًا.

ولكنها في النهاية رضخت لذاك الاقتحام بسعادة بالغة، وأبوها يخبرها بأن المأذون قد حضر وينتظرها بالخارج.

لحظة يأس

وحيدة هي، بائسة، لديها فراغ ينذر بحدوث كارثة، تحيا على شرف رسالة لا تأتِ وفرحة طال انتظارها، كأرض قاحلة تشققت من الجفاف تشتاق لقطرات الندى ولا تطمع في الغيث.. هشة كورقة شجر سقطتْ في فصل الخريف. تشعر بكونها أميرة بلا فارس، الأنثى بداخلها تتفتت قطعًا صغيرة كحصى متناثر على الطرقات.

أبهجتها زيارة تلميذها النجيب بعد تخرجه من الكلية، التي كانت تُدرّس له فيها، بحكم كونها مُعيدة.. فرق العمر بينهما قرابة عشرة سنوات، هي اعتبرته بمثابة ابنها؛ فقد درست له وهو في عامه الأول والثاني، حين وصل لعامه الثالث الجامعي كان يأتي لها بعد كل نتيجة يخبرها بنجاحه بتفوق، وبأنها لها فضل عليه نتيجةَ تشجيعها الدائم له. هي تذكره نعم، ولكن لا تذكر إنها خصصته باهتمام خاص. لكن بعد أن ظل يشاركها لحظة نجاحه، شعرت بالفعل بفخرها بأنها تسببت في تفوقه. يأتي اليوم وهو ناجح في وظيفته مُرتديا حلة خطوبته، ليخبرها بضرورة وجودها معه في هذا اليوم. تبتهج أكثر وتتعامل معه كابن جاء من السفر. الاتصالات تبدأ على استحياء وهو يشاركها أدق تفاصيله، ومن آن لآخر يخبرها بمشاعره لها كنجمة عالية في السماء يهوى النظر إليها ويتمنى الاقتراب منها، ويغضب من وصفها له كابن؛ ففارق السن ليس كبيرا لهذه الدرجة من وجهة نظره. فسخ خطبته

قبل الفرح بأسابيع، وأخبرها بأنه يشعر الآن بالراحة؛ فارتباطه كان حملا أثقل كاهله.

كان يداعب روحها ويدغدغ مشاعرها، فتارةً يقرأ لها شِعرًا، وتارةً أخرى يكتب لها نثرًا، وتارةً ثالثة يتصل بها خصيصا ليقص عليها مشاعره تجاهها دون أن ينتظر منها ردًّا. هو فقط سعيد بتلك المساحة التي يستطيع فيها التعبير عن خلجاته.

وحينما يشعر من ردها عليه بأنها ليست على مايرام، يتلو عليها آيات من الذكر الحكيم بصوته الخلاب، حدّ أنها تغفو حينها مطمئنة. يُسمعها كلمات تبدو بسيطة، ولكنها تفعل بداخلها الكثير

«أريد أن أتحدث معكِ عنكِ.. أنا سندك، اطمئني..»

لم يفعل هذا طليقها حينما كان زوجها، ولم يفعلها صديقها حينما كان حبيبها.

لأول مرة تجرب حُبًّا من نوع مختلف، واهتمام من نوع خاص، تسمعه وهو يقول لها:

««وأسألُ نَفسي:

لِماذا أُحبُّكِ رَغمَ اعتِرافي بأنَّ هَوانا مُحالٌ.. مُحالْ؟
ورَغمَ اعتِرافي بأنَّكِ وَهمٌ وأنكِ صُبحٌ سَريعُ الزَّوالْ؟
ورغمَ اعترافي بأنكِ طَيفٌ وأنكِ في العِشقِ بعضُ الخَيالْ؟
ورغمَ اعتِرافي بأنكِ حُلمٌ أُطارِدُ فيهِ وليسَ يُطالْ؟
وأسألُ نفسي لماذا أحبُّكْ إذا كنتِ شيئًا بعيدَ المنالْ؟

لماذا أحبُّكِ في كلِّ حالْ؟
لماذا أُحبكِ أنهارَ شَوقٍ وواحاتِ عِشقٍ نَمَتْ في عُروقي
وأضحَتْ ظِلالْ؟

وأسألُ نَفسي كثيرًا كثيرًا، وحينَ أجَبتُ وَجدتُ الإجابةَ
نَفسَ السؤالْ
لِماذا أُحبُّكْ؟»»*

سجَّل هذا المقطع بصوته وأرسله لها، فظلت تستمع إليه كحصن يومي، ودواء يسكن وحدتها.

كانت آلام عزلتها تزداد، ووجع فقدها للاحتواء يئن، وأنوثتها تنخر عظامها.

ذهبتْ له أثناء عمله في الفترة المسائية، وهي تعلم كونه في الشركة وحيدًا. كانت ضعيفة تحتاج إلى السند، أو بمعنى أدق إلى حضن تبكي داخله دون أن يسألها عن شيء.

اقتربت منه وربتت على كتفه، وهو مندمج في كتابة الأوراق الماثلة أمامه. فرح لرؤيتها وأخبرها أن تجلس حتى ينتهي مما يفعل.

لم تهتم لما قاله وقامت بلف ذراعيها حول عنقه برقة، وكأنها تحتمي به وتبحث عن أمان مفقود. ترك القلم من يده، وبادلها الحضن بحضن أقوى جعلها تذوب بين أضلاعه.. حرَّكت شهوته فكان ينهل منها ما استطاع،

---

* شعر عبدالعزيز جويدة.

استسلامها غرَّه ليأخذ ما تطوله شفتاه ويُشبع هياج جسده الفائر.. تشعر بكل شيء ولا تستطيع المقاومة؛ فقد كانت كحال السكارى. تراه يحاول ولوجها ولكن بنطالها حال دون إتمام ذلك. اطمأنت قليلا ونظرتها لذاتها لم تمس كجسدها، ولكنه نزع بلوزتها وقضم رمانتها اليسرى، وظل يرتشف من نصفها العلوي حتى شبع، ثم قام عنها وهم بالانصراف.

هنا سمعت صوتًا بداخلها يقول: "عليكِ لعنة الله! لم تعودي غالية" تنادي عليه بعينيها، وهي تحاول أن تداري جسدها، فيعود إليها نادما على ما فعله، يسدل عليها ما يسترها، يحملها بين ذراعيه، ويذهب بها إلى منزلها، فيُسلّمها لشقيقتها ويرحل دون وداع.

«لم يشتهِها الحب، فماتت تشتهي حضنًا حلالا»

رثاء

أفاقت من التخدير بعيون ناعسة، وجسد منهك بعد عملية الولادة، لتسأل عن طفليها. أخبرها شقيقها أنهما بخير وفي غرفة المولودين. طلبت أن تراهما وتملأ عينيها بهما؛ فهما نتاج صبرٍ سنين ودعاءٍ وحنين، ثم نظرت في المحيطين فلم تجد سوى شقيقها فقط! فسألته: «أين أمي؟»، أجاب: «على وصول.. ستأتي قريبا»

ردت بامتعاض: «من أين ستأتي!؟ ألا تعلم أنني وضعت توأميّ!؟ كيف تتأخر عن المجيء!؟»

أجابها بابتسامة صامتة دامعة.

استنتجتْ أن هناك أمرًا سيئًا يخفيه عنها، فسألته بقلق ممزوج بغضب: «ماذا حدث؟؟»

أجابتها دموعه دون أن يتفوه بحرف.

قالت: «أخبرني الآن! هل حدث لها مكروه؟ هل أصاب أبي شيء؟ إن آجلا أو عاجلًا سأعرف، فأخبرني الآن»

. «البقاء لله.. كانت أمنيتها الوحيدة أن ترى أولادك.. لكن من الواضح أن قلبها لم يتحمل الفرحة»

قالت بثبات لا تعلم من أين حصلت عليه: «وأين هي الآن؟ هل دفنتموها؟»

. «لا.. فنحن نريد الاطمئنان عليكِ أولًا»

. «أتعني أن أمي لا تزال في البيت؟»

أجاب برأسه أن (نعم).

نهضت من اضطجاعتها غير مبالية بألم جرحها، ضاربةً الجرس تستدعي الممرضة.

. «أريد الذهاب إليها الآن.. خذ بيدي»

. «هل جننتِ!؟ لا يمكنك النهوض وأنتِ في هذه الحالة»

قالت وهي تنهض ممسكةً بيدها مكان الجرح: «أنا بخير.. ساعدني سريعًا في تجميع حاجياتي لنذهب»

دخلت الممرضة مبتسمة: «حمدًا لله على سلامتك يا سيدتي»

تجاهلت تحيتها وقالت بغضب: «أحضري لي الأولاد»

.«إنهما نائمان!»

. «لا أسألكِ عن وضعهما، بل آمرك بجلبهما لي الآن.. فافعلي حالًا!»

ومع علو صوتها، والنظرة النارية، خرجت الممرضة لتجلبهما لها.

نادتْ لممرضة أخرى لتساعدها في تبديل ملابسها. استجابت الممرضة لطلبها وهي تهمهم بأن الطبيب سيمانع هذا؛ لأن عليها أن تحصل منه على تصريح خروج أولا.

فردت عليها: «سحقا اليوم لكل الإجراءات في العالم!»

كان زوجها الطبيب قد علم ما حدث، وسمح بأن تخرج ويتم لها ما تريد دون أية مناقشات.

حملت صغيرتها (نعمة)، وجعلت شقيقها يأخذ صغيرها الآخر (فضل) من الممرضة ليحمله، وسبقتهما العاملة بحقيبة أغراضها للسيارة.

وقفتْ أمام الغرفة المغلقة، حاملةً صغيرتها وهي تنظر لأخيها، وتطلب منه أن يعطيها الصغير.

كاد أن يعترض، أن (كيف ستستطيعين حملهما وحدك!؟).

لم ترد كعادتها في هذه المواقف، بل أشارت بيدها أن أعطه لي الآن.. وفتحت ذراعها الأيمن لاستقباله.

فتح لها الباب، فدخلت وأغلقته وراءها بقدمها.

كانت الأم مستلقية على السرير مغطاة بملاءة. اقتربتْ منها، ولفت انتباهها أنها تحمل الصغيرين، ولن تستطيع إزاحة الغطاء عن وجهها، ففكرت للحظة أن تستعين بأحد من الخارج ليفعلها، لكنها تراجعت عن هذا؛ فهذه لحظة خاصة لا يجب أن يراها أحد. اقتربت من وجه أمها المغطى، ووضعت طرف الملاءة بين فكيها، وأزاحته ليكشف عن وجه متلألئ بالضياء كالبدر.. جلست على حافة السرير معتدلة مقتربة منها قدر استطاعتها.

. «ها هم أولادي يا أمي.. انظري إليهم.. هذه (ننوس)» (كما كانت تدللها أثناء فترة الحمل)، ورفعتْ ذراعها الأيسر المحمل بالطفلة لتصبح أمام وجه الأم قائلة: «انظري كم هي جميلة.. إنها تشبهك كثيرا؛ فقد ورثت عنك بياض البشرة، وعيونك العسلية، وشعرها فاتح كشعرك. إنه خفيف قليلا لكن من الواضح أنه سيكون فاتح اللون»

«وهذا (فضل).. أرأيتِ؟ لم يصبح حصانًا كما كنتِ تسخرين دومًا من اسمه قائلة (هتسميه فضل ليه هو حصان!؟).. أترينه كم هو جميل ويشبه خاله كثيرا؟»

وتضم الصغيران إليها قائلة: «لقد أصبحتُ أما أخيرا.. لكني لم أعد أجد من أناديها ب(أمي).. هل تسمعينني الآن؟ هل تريني أنا وأحفادك يا أمي؟ أخبريني أنك ترينهما كما كنتِ دوما تتمنين.. افعلي أي شيء يدل على إحساسك بوجودنا.. أسقطي شيئًا على الأرض أو افتحي النافذة، أو حتى اجعليهما يبكيان»

تطير ستارة الغرفة مع نسمة هواء منعشة داخل الغرفة. ابتسمتْ دامعة ثم أكملت: «لكن كيف استطعتِ تركي بسهولة!؟ من سيبدل حفاضاتهما؟ أنتِ تعلمين جيدا أنني لست أهلا لذلك؟ من سيقوم برعايتهما والاهتمام بهما؟ من سيقوم بعمل أشهى الأكلات من أجلهما؟ لقد قمتِ بإطعام جميع أطفال العائلة، وحينما أصبح لديكِ أحفاد من ابنتك الوحيدة ترحلين هكذا!؟ من سيرعاني الآن وأنا في مرحلة النفاس!؟ وماذا إذا سألني أولادي عنك بماذا أجيبهم؟ هل أخبرهم بأنك رحلتِ فور وصولهم!؟ هل نسيتِ خوفي من فكرة الإنجاب بعد تأخرها، ورغبتك الشديدة بها، ووعدك

بأنك ستكونين مسؤولة عنهما معي، بل لن تجعليني أشعر بشيء!؟ تعلمين أنني الآن من المحتم ترك أطفالي عند شخص ما، حتى أكون مستعدة للعزاء، ولكنني لن أستطيع تركهما؛ إنهما قطعتين من جسدي، هذه ذراعي الأيمن وهذا ذراعي الأيسر. هل سأرحل من هنا دونك يا أمي!؟ أعلم أنهما قد تأخرا كثيرا ولكن لم يكن بيدي شيء؛ إنه النصيب. عذرك الوحيد يا أمي أن لكل أجل كتاب»

وأجهشت في بكاء لم تستطع خلاله الكلام، واهتزت يدها، وشعرت بوجع جرحها يئن، ففزع الصغار وقاما بالصراخ، ففتح شقيقها باب الغرفة ودخل ليجدها كادت أن تُسقط الصغار من يديها، فأخذ الصغير أولا ووضعه على طرف السرير، ثم حمل الصغيرة ووضعها على الجانب الآخر، ثم أخذ شقيقته في حضنه ليبكيا سويا وسط عويل النساء في الخارج.

(تتذكر هذا أثناء تحضيرها كعكة عيد الميلاد الخامس لصغيريها، تنتبه على صوت شجارهما على إحدى الألعاب، فتذهب لهما باسمة لتفض النزاع. تسألها الصغيرة دون مقدمات: «كيف يكون عمري أنا وشقيقي اليوم خمسة أعوام!؟ من الأكبر إذًا؟؟». تتسع ابتسامتها لـ(لماضة) طفلتها، وتحتضنهما معا مُجيبة: «عندما يأتي بابا من الشغل نسأله؛ أنا كنت نائمة وقتها»).

قرة العين

تستيقظ قبيل الفجر، لتستعد للسفر مع أبيها للعاصمة؛ لتنهي إجراءات سفرها للإقامة مع زوجها. تفتح خزينة ملابسها لتختار كنزة ثقيلة؛ فالجو بارد، مُمطر، عاصف ينذر بطقس سيئ على مدار اليوم. ترتدي ملابسها على مضض؛ الجو غير مشجع للاستيقاظ، والنهوض من الفراش الدافئ، وليس للسفر.

وصلا في الموعد المحدد، تعرضت للكشف الطبي ولإجراء التحاليل، وكم كرهت نفسها وقتها؛ فلم يخبرها أحد أن إجراءات الإقامة تتضمن هذا، «لو كنت أعلم، ما فعلت؛ لا يوجد شيء يجبرني أن أتعرى أمام رجل يدعى طبيب، وكأن الطبيبات أصابتهن إصابة جماعية، فيكون المسؤول عن هذا الإجراء الروتيني رجل! -لم أفعلها في مرضي أن أذهب لطبيب حتى أفعلها الآن!- تبًا لكل شيء! وما هذا أيضًا!؟ سيقوم بإجراء الأشعة على صدري رجل!؟ وهل هذا طبيب ومعه رخصة بالفعل، أم مجرد فني أشعة؟ إنها مهزلة بكل المقاييس!»

في المرة التالية دخلتْ للسفارة وحدها. بعد وقت قليل علمت بأنها حصلت على الإقامة. لم تفرح؛ فقد كانت تشعر بأن هذه الخطوات عليها فعلها فقط. خرجت واجمة، فقلق أبوها وسألها عن النتيجة، أعطت له جواز السفر مُحمّلًا بورق الإقامة، شعرتْ بسعادة وفرحة منه لم ترهما من

قبل؛ فقد انفرجتْ أساريره، وظل يحمد الله جهرًا بأن الإجراءات قد انتهت على خير، وتستطيع ابنته الآن السفر فور شراء التذكرة.

غضبت كثيرًا؛ فلم تفهم ما كل هذه السعادة! ابنتك ستغادرك، ربما للأبد، ما المُبهج في هذا!؟ شعور بالحزن ينهش كل أجزاء جسدها بصمت، ولكنها لا تعقب.

ظل يحادثها مسرورًا عن لا شيء يخصها كعادته معها أثناء رحلة العودة، مما جعلها لا تركز فيما يقوله؛ فقد كانت شاردة فيما ستذهب إليه، لتخبره أخيرا: «لم أكن أعلم أن بُعدي عنك سيتسبب في سعادتك هكذا!؟»

. «لماذا تفكرين هكذا!؟ أنا فقط سعيد لأن الإجراءات انتهت؛ فكم من أشخاص قد تم رفض إقامتهم بعد مرورهم بجميع المراحل! قد رأيتُ وأنا في انتظارك بالخارج امرأة تبكي؛ لأن إقامتها تم قبولها وإقامة طفلها الرضيع لم تتم قبولها ولا تدري ماذا تفعل، فخشيتُ أن تتعرضي لذاك الموقف»

. «إذن لماذا لم تكن تهتم بي!؟ لماذا حينما تجدني منعزلة صامتة، لا تقتحم وحدتي، وتسألني عما بي!؟»

. «لأني أحترم خصوصيتك، ولا أريد أن أفرض وجودي عليكِ»

. «لكنك أبي، ولك كل الحقوق التي تجعلني أشعر أنك حقًا تهتم لأمري، حتى وإن أبديتُ اعتراضي على التحدث وقتها، كنت أحتاجك دومًا، أحتاج حضنك، أحتاج أن أشعر باحتوائك لي، وبأنني سأظل طفلتك المُدللة مهما كبرت. لماذا يا أبي لم أشعر يومًا بأنني أمثل فارقًا لديك!؟ مازلتُ أذكر يوم مناقشة رسالة الماجستير الخاصة بي، كلما نظرتُ تجاهك لأرى انفعالات

وجهك بما أقول؛ لعلني أستمد من نظراتك تجاهي الدعم الكافي الذي كنت أحتاجه في تلك اللحظة، فأجدك ناظرًا للفراغ وليس لي. وبعد الانتهاء بدلًا من أن تهنئني -فقد حققتُ مالم يحققه أحد من عائلتي من قبل- وبدلا من ألمح نظرات سعادتك بنجاحي، لمحتُ أن ما لفت نظرك يومها بأن المناقشة أخذت وقتًا أطول من اللازم. لا يخفى عليك بأنني أنا من ابتعتُ المشروبات للحضور، بعدما رأيتك ليلتها لم تهتم بجلب العصائر، وكأنني وحيدة، وليس لي أحد يبتهج من أجلي»

. «أتذكر حينما كنتَ تتعجب من زيارتي الدائمة لدار المُسنين؟ كان هذا لأنهم هناك يقولون لي ما لم تقله أنت لي؛ فهناك من كان دومًا يخبرني ببهجة «أنا فخور بكِ». كم تمنيتُ أن أسمعها منك أنت يا أبي! حتى ابنة شقيقتي الصغيرة، أرى أنك تحبها، وتهتم بها، وتجلب لها الحلوى وأنا لا. نعم أغار من الصغيرة؛ فأنا من هي ابنتك، والتي من المفترض أن تظل صغيرة في عينيك دومًا»

. «يوجد سوء تفاهم يا ابنتي؛ فلا يوجد عندي ما هو أغلى منكِ»

. «كم تمنيتُ أن أرى هذا، وأشعر به بنفسي!»

الجميع يستعد للذهاب معها إلى المطار. هي بداخلها لا تريد السفر، ولكنه أمر حتمي. سعادة وبهجة تشع من وجوه المحيطين؛ فهي ذاهبة لبلد البترول، وطبيعي أن تعود مُحمّلة بهدايا ثمينة وقيّمة. تنظر لأبيها أثناء حمله لحقائبها، متمنيةً أن يقول لها أي شيء، ولو حتى «سأفتقدكِ»، لكنه لم يقل شيئًا.

«آه يا أبي! ليتك تعلم كم أحتاج لحضنك وحنانك الآن! أحتاج أن تمنعني من السفر؛ فزوجي يريد هجرة أبدية لا رجعة فيها!»

وصلتْ المطار، نظرتْ لأسرتها الصغيرة محاولةً أن تُبدي التماسك قائلة: «لن أسلّم على أحد.. يكفيني وجع السفر».

ساعدها في حمل الحقائب، حتى وصلت للبوابة الرئيسية، التي عند دخولها ستتم إجراءات السفر. لم تنظر خلفها لحظة؛ فهي تمنع هطول دموعها. «لا أريد السفر. أشعر بانتزاع روحي، بلدي، أسرتي، وظيفتي، نفسي! كل شيء هنا في مصر كيف أتركه!؟»

عليها الانتظار بعد أن انتهت من إجراءاتها الروتينية إلى أن يحين موعد صعود الطائرة، التي تم تأخير رحلتها ساعتين. عليها إذن الانتظار وحيدة. يعيد صوت هاتفها الوقت للحياة، بعد معاناة من ألم الاحتضار. رأت الرقم الظاهر على شاشته فوجدته والدها!

للمرة الأولى تسمع بكاءه: «كيفك حبيبتي؟»

تجيب باقتضاب: «بخير»

. «هل صعدتِ إلى الطائرة؟»

. «لا؛ تم تأجيل الرحلة ساعتين»

. «هل تستطيعين الخروج للجلوس معي حتى يحين موعد الإقلاع؟»

. «لم يعد متاحًا الخروجُ من صالة الانتظار»

. «هل تريدين أي شيء؟»

. «متشكرة»

. «في أمان الله يا حبيبتي.. مع السلامة»

. «الله يسلمك»

لا تعلم ما سر هذا الجفاء في ردودها، رغم ما تشعر به من احتياج إليه! لِمَ تخفي مشاعرها خلف ستار ولا تريد البوح بها!؟ تتنهد بوجع: «آه يا أبي! لماذا تتذكرني الآن!؟ لماذا لم تشعر بألم فراقي إلا الآن!؟ ألم تكن مُتحمسًا لسفري!؟»، ليعود الموت يحلّق حول الوقت من جديد.

يغلق الهاتف معها ويعود بذاكرته لخمسة أعوام مضت.. يوم أن ذهب ليقضي عطلة ترفيهية مع أصدقائه القدامى، وكان يرتدي وشاحًا صوفيًا أثار إعجاب الجميع.

فسأله أحدهم: «إنه قيّم وأنيق.. من أين ابتعته؟»

فأجاب بلامبالاة: «صنعته ابنتي»

قال الصديق بانبهار: «حقًا!؟ يا لها من فنانة! فهو لا يدل على أنه

صناعة يدوية، وكأنه تم إنتاجه في مصنع متمرس؛ فتداخُل الألوان، ومتانة الخيوط، والتقفيل النهائي، رائعين بحق»

شعر بقليل من الزهو فقال: «هي تقضي وقت فراغها في صنع مثل هذه الأشياء»

سأله برجاء: «هل تخبرها أن تصنع لي وشاحًا شبيهًا؟»

أجابه: «سأطلب منها ذلك»

في العام الذي يليه، وفي عطلة جديدة مع أصدقائه، أخبرهم على استحياء حينما سألوه عن ابنته، بأنها ألفت كتابًا.

عاتبه أحد الأصدقاء على عدم إتيانه بالكتاب معه في الرحلة موقَّعًا من ابنته ليقرؤوه.

أخبرهم قائلًا: «الكتاب متوفر في المكتبات المختلفة، وتستطيعون الحصول عليه حينما نخرج للتنزه ليلًا»

غضب الصديق قائلًا: «كنت أريده مُوقَّعًا من الكاتبة شخصيًا»

ابتسم الأب مازحًا: «حينما نبتاعه سأوقّع لك مكانها»

لم يتقبل الصديق المزحة: «ما دخلك أنت لكي توقع على الكتاب!؟ على أية حال سأعاتبها حين أهاتفها لأشكرها على الوشاح» بعدما قرأ الكتاب انبهر بأسلوبه المختلف، وقوة لغته، وشعر بالفخر لأنه يعرف الكاتبة شخصيًا، ودعاها لحضور أمسية شعرية، ثم بعدها يحتسيان معًا مشروبًا ساخنًا.

جلس إليها، ولفت نظره أسلوبها الراقي في الحوار، وثقافتها المتنوعة، وخفة روحها، ودماثة خلقها؛ فهو لم يرها ويتحدث معها هكذا منذ سنوات عديدة.. وقتها كانت ماتزال طفلة صغيرة، أما الآن فهي فتاة شابة يتمنى الجميع قربها.

أشاد بتربية صديقه لابنته وأثنى عليها، وظل يتحدث عنها أمام بقية الأصدقاء بانفعال يوشي بأنها قد تركت أثرًا واضحًا في روحه. تعجب الأب من تعليق صديقه على ابنته؛ فهو لم يرها هكذا يومًا. فمازال يذكر سخريته الدائمة مما تصنعه ابنته من أشغال يدوية متنوعة، ويتهمها دومًا بالتبذير وإنفاق الأموال فيما لا يفيد. أما كتابها فهو لم يهتم يومًا بقراءته، حتى بعدما صار محطًا للأنظار عبر وسائل الإعلام المختلفة.

كان يخشى من مقابلتها لأصدقائه؛ فهي بالنسبة له سطحية التفكير، أو بمعنى أدق مجرد طفلة لم تنضج بعد لترتقي لمحادثة الكباروالجلوس معهم.

ولهذا لم يسمح لها بالتحدث معهم على الإطلاق. فكلما أراد أحد منهم سؤالها عن الكتاب، تطوع هو بإجابة مقتضبة ومختصرة، وغيَّر دفة الحوار للتحدث عن ذكرياته المزعومة عن طفولتها، فما كان من أحد أصدقائه إلا أن قام ونادى عليه ليشاركه تدخين النرجيلة بعيدًا عن تلك الجلسة، فقام معه باقتضاب بعدما نفدت أعذاره، ولم يستطع أن يفلت من حصاره. فاجئته ردود فعل أصدقائه ورغبتهم في أن تتعرف على أبنائهم وتصادقهم، وعرض أحدهم عليه بأن تلقي ابنته ندوة في مكتبته الشهيرة بوسط البلد، لتتحدث فيها عن تجربتها مع الكتابة.

اقترب من مكان جلوسها مع أحد أصدقائه دون أن يلاحظوا وجوده، ليراها -لأول مرة- عن قرب.

في يوم الندوة، تجرّد من نظرة الأب، لتحل محلها نظرة إنسان يكتشف فتاة مكتملة الأنوثة، وليست طفلة صغيرة، تتحدث بلباقة، وليس بتهتهة، لديها مرونة في الحوار؛ بحيث تنتقل من موضوع لآخر بتلقائية مع ابتسامة جذابة تنم عن الثقة بالنفس، وليس عن بلاهة.

شعر بالغيرة من نظرات أحد أصدقائه لها؛ فهي نظرات رجل لامرأة، وليست نظرة (عمو) لطفلة.

الآن فقط عَلِم لماذا كانت تغضب ابنته حينما يسمح لأحد أصدقائه أن يُقبّلها، وتتهمه بأنه لا يغار عليها.. الآن فقط فهم سبب صمتها الدائم بصُحبته.

وها هي الآن سترحل عنه ربما للأبد، بعد أن أخبرته بافتقادها الدائم لاهتمامه ولحنانه.

مازالت تشعر بقبضة في قلبها، وغصة في حلقها. أخيرًا جاء موعد الرحلة المحدد. ركبت الطائرة وكان مقعدها جوار النافذة لحسن حظها؛ فهنا تستطيع الاختباء من نظرات المتطفلين، والبكاء دون أن يراها أحد.

همَّت الطائرة بالتحرك، فشعرت بانسحاب روحها. أخذت نفسًا عميقًا، وكأنها تريد أن تتجرع أكبر كمية من الهواء؛ لتحتفظ بها في رئتيها قبل مغادرة وطنها.

عند بدء انطلاق الطائرة، جاء أحدهم يجلس إلى جوارها في المقعد الفارغ. وعندما التفتتْ للنظر إليه بفضول طبيعي وبعيون حزينة، اتسعت فجأة حدقتيها باندهاش يسع الكون. ربت على يديها قائلا: «لم أكن أستطيع تحمُّل فراقك يا قرة عين أبيكِ؛ فكيف لحياتي أن يكون لها معنى وأنتِ لي كالأكسجين في الحياة!؟»

انفرجت أسارير وجهها العابس، وهنا فقط شعرت بأنها لن تغادر وطنها؛ فالروح قد دبّت في جسدها ومحياها من جديد، ظهرتْ في تنهيدة قوية جرعت بها رائحة أبيها القابع جوارها. وضعت رأسها على كتفه بابتسامة واسعة ملأت وجنتيها وأضاءت روحها، وذهبت في سبات عميق، متعانقي الذراعين.

المحتويات	رقم الصفحة
الحضن المفقود	٥
الجانب الآخر	١٧
من سيربح المليون	٢٠
إيحــاء	٢٥
الميدالية الذهبية	٢٩
كبرياء	٣٤
في الوقت الضائع	٤٠
تحول	٤٥
ذات الشعر القصير	٥٥
كيدهن عظيم	٥٦
لست عاهرة	٦٠
أسوار الحياة	٦٢
أولاد الحرام	٦٨
هلاهيل	٧١
طمني عليك	٧٨
الثمرة الناضجة	٨١
لحظة يأس	٨٨
رثـــاء	٩٢
قرة العين	٩٧

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017